الرحلة إلى الطنطل

مريم كعبي

obeikan.com

الكتاب: الرحلة إلى الطنطل (قصص قصيرة)

المؤلف: مريم كعبي

الطبعة الأولى: القاهرة ٢٠١٨

رقم الإيداع: ١٠١٨٤ / ٢٠١٧

الترقيم الدولي: I.S.B.N: 978-977-493-278-0

الناشر

شمس للنشر و الإعلام

٢٧ ش الثلاثين. برج الشانزليزيه. زهراء المعادي. القاهرة

ت فاكس: ٠١٢٨٨٨٩٠٠٦٥ (٠٢)

www.shams-group.net

تصميم الغلاف: ياسمين عكاشة

حقوق الطبع والنشر محفوظة

لا يسمح بطبع أو نسخ أو تصوير أو تسجيل

أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة كانت

إلا بعد الحصول على موافقة كتابية من الناشر

obeikan.com

شمس
للنشر والإعلام

الرحلة إلى الطنطل

قصص قصيرة

مريم كعبي

obeikan.com

obeikan.com

إهـداء

إلى روح رضوان الغاليث ، جدتي وملهمتي

obeikan.com

obeikan.com

المحتويات

- مهرجان النباح ٩
- المواطن الصالح ١٩
- حلقة المتسوّلين ٢٧
- الخنساء ٣٥
- عروس النهر ٥٣
- الفيضان ٦٥
- القنغاء ٧٧
- مهرجان النباح في غابة أخرى ٩٧
- الرحلة إلى الطنطل ١٠٧
- سم التمر ١٢٧
- الذبابة ١٣٥
- المحطة الأخيرة ١٤٥
- المصعد العام ١٥١
- وجع الماء ١٥٩
- عُرس الإسمنت ١٦٧
- جرح في الرسم ١٧٥
- ذاكرة العِطر ١٨٥
- الناقد ١٩١

obeikan.com

obeikan.com

مهرجان النباح

– سيدي! خمسة عشر دولة ستشارك في احتفالات عيدنا الوطني، معالي الوزير! خمسة عشر بعثة دبلوماسية رفيعة المستوى ستحضر الاحتفال وترى بأُمِّ عينيها قدراتنا، وولاء شعبنا العظيم لقائده الكبير؛ فرقة الرعد الموسيقية ستبدأ الحفل بعزف النشيد الوطني، وبعد كلمة جلالة الوزير سيلقى الشعراء قصائدهم الوطنية، ومن ثم تُعرض أفلام وثائقية تكشف عن إنجازات الدولة في السنة الماضية في شتى المجالات؛ العسكرية، والطبية، والاقتصادية، و.....، تليها عروض سيرك الأسد الجائع... ثم...

– هنا! هنا!... مربط الفرس.

أوقفه الوزير وظلَّ النائب الأول ينظر إليه باستغراب، تابع الوزير:

– منذ توليتُ منصب وزارة الثقافة قبل ثلاث سنوات، وأنا أفكِّر بإقامة حفل مميز أقدِّمه لسيادة القائد، شيء ما قوي أريده أن يقهر أمام هيبة القائد، وهل هناك أفضل من الأسد، رمز الشجاعة والسلطة؟ تعالوا أيها النوَّاب والمستشارون، إليكم الهدف وابحثوا عن خطة للتحقيق.

ظلَّ المستشارون والنوَّاب منهمكين في التفكير لأيام؛ كيف يحضرون مجموعة من الأسود تقف صامتة في طابور منظم، وإن طلَّ عليها القائد تحني رقابها احترامًا وتزأر على إيقاع النشيد الوطني بإشارة من مروضها، غير أنهم لم يخرجوا بحل فاستعانوا بمدرب السيرك الوطني.

* * *

بعد أيام توقفت الشاحنات ذوات اللون الأخضر الغامق في بدايات الغابة، نزل سائقوها وفتحوا أبوابها الخلفية وبدأ الجنود بالتسلل نحو الغابة بهدوء وحذر خشية الكمائن التي قد تواجههم في الطريق، انقسموا إلى ثلاث مجموعات؛ أعضاء

المجموعة الأولى حملوا أسلحتهم وتسللوا إلى الأطراف ليجسوا نبض الغابة والمخاطر المحتملة، في المجموعة الثانية خلع الجنود قمصانهم البنية واكتفوا بفوانيل رمادية بلا ردان، ثم باشروا بقطع الأشجار ليصنعوا بها قاعدة عسكرية، الآخرون في المجموعة الثالثة توجهوا إلى شاحنة أخرى وأنزلوا الأطباق ومعدات الطهي ورحل بعضهم يجمعون الحطب ليشعلوا المواقد تأهبًا لزملائهم الذين سيرجعون من الغابة مزودين بالصُيُود.

في هذا الحين اجتمع القادة العسكريون بالرجال ذوي القمصان البيضاء الطويلة والسراويل السوداء العريضة فوق هضبة قريبة من الجنود، وانحنت رؤوسهم على خريطة كبيرة للغابة كان يمسك بها رجل في الأربعينات، تعتلي أكتافه عباءة رمادية، ذو لحية طويلة تمتد حتى تغطي عنقه تمامًا، بين حين وآخر أحد القادة العسكريين كان يلتفت إلى الخلف ليوجِّه أمرًا للجنود أو يلقي نظرة على نشاطاتهم ومن ثم يندس في الحديث الحار فوق الهضبة.

بعد ساعة التحق مدرب السيرك بالقادة المجتمعين وأخذوا جميعًا يقلبون نظراتهم بين الخريطة وقلب الغابة حيث الأُسود، صاحب أكبر عدد من النجوم على كتفه، ضرب على كتف مدرب السيرك قائلاً:

– إن تمكنت من ترويض عشرة أُسود على الأقل للمشاركة في احتفالات العيد الوطني؛ سيبقى اسمك مُخلَّدًا في ذاكرة القائد.

الرجل ذو العباءة الرمادية سلَّم الخريطة إلى القائد العسكري ثم حيَّا الجنود بإشارة يديه من بعيد، وانصرف برفقة ذوي القمصان البيضاء إلى خارج الغابة، ولم يبقَ في القاعدة العسكرية سوى القادة العسكريين، والجنود ومدرب السيرك الوطني.

– احضروا لي كميات كبيرة من اللحم النيئ والمشوي، وتسللوا بي قريبًا من عرين الملك، إن طحت بالرأس سيطيح الجسد...

قال هذا مدرب السيرك ثم مشَّط شاربه الأصفر بإصبعي سبابته وإبهامه وأضاف:

– تعرفون! إنها ليست الطريقة المعتادة للترويض في السيرك الوطني، نحن نخطف الأشبال في غفلة من اللَبُؤات وننقلها إلى الأقفاص، ومن ثم نعمل معها على مدى أعوام حتى تصبح أسودًا مروضة تتحرك رهن إشارة منا، لكني سأنجز هذا من أجل القائد والوطن...

أشاد به القادة وأحدهم قال:

– كلاب التجسس ستتمكن من إيجاد دربًا سريًّا يصل بك إلى عرين الملك.

* * *

في ساعة متأخرة من الليل، مدرب السيرك رمى فخذ خنْزير نيئ إلى العرين وخبأ رأسه بين الحشائش الطويلة؛ الأسد شم رائحة الدم وانقض على اللحم، ثم بدأ يجول حول العرين بحثًا عن لحوم أخرى، حبس مدرب السيرك أنفاسه ووضع على

عنقه من قارورة عطر الحشائش حتى ابتعد عنه الأسد، ثم رمى قطعة كبيرة من لحم الغزال المشوي وانتظر ردود فعله، لم يلبث الأسد أن هرع نحوها وبعدما قلبَّها واكتشف أنها جافة بلا دم، ألقى بها خارج العرين.

في اليوم التالي مدرب السيرك ملأ العرين باللحم المشوي ليثير شهية الأسد، غير أنه زأَر غاضبًا فأحاطت به زمرته ثم توافدت جميع الأسود في العرين، ارتبك مدرب السيرك ورمى كل ما لديه من اللحم النيئ نحو الأسود غير أنها لم تكترث باللحوم وخرجت غاضبة تشم الأطراف بحثًا عن مصدر هذا التطاول على العرين.

ظل مدرب السيرك مختفيًا مع كلاب التجسس لساعات، وكمية هائلة من اللحم المشوي في حوزتهم، تناولت الكلاب الكثير منه، ثم رجعوا خائبين إلى القاعدة العسكرية.

الوقت كان يداهم الوزير، الحفل سيُقام بعد أسبوعين، واتصالات المستشارين لم تتوقف، القائد العسكري استدعى مدرب السيرك غاضبًا:

– تفرقت الأسود في الغابة بحثًا عنا، ستفترسنا بدلاً من أن نروضها، ماذا نفعل الآن؟ كتيبة الأسود لابد أن تحضر الاحتفال! معالي الوزير قد أخبر القائد بمفاجأة يحضرها له.

أخذ مدرب السيرك يبحث عن مخرج في تجاربه السابقة مع الحيوانات، وأخيرًا قال:

– فلنرغم الأسود على أكل المشوي! اقضوا على جميع الحيوانات الأخرى التي تصطادها الأسود.

انتشر الجنود، متسلحين بأشرس الأسلحة، في الغابة وقضوا على أي حيوان قد تصطاده الأسود، وامتلأت الغابة بالجثث، وفاضت الأنهار بالدماء، وكلاب الصيد كانت تجري طوال الوقت تنقل الجثث إلى القاعدة العسكرية كي تشوى.

باتت الأسود تنحف كل يوم أكثر، وكلاب التجسس لم تعد تهابها، ومدرب السيرك أخذ يرمي قطع اللحم المشوي بلا خوف أمامها، مع هذا لم يتغير شيء، الأسود لم تزل تبحث عن الحيوانات الحية لتصطادها، والكلاب غدت أكثر سمنة، واتصالات المستشارين والنواب مستمرة، وقلق القادة العسكريين ازداد، وحيرة مدرب السيرك تضاعفت.

في صباح باكر؛ فزع رئيس القاعدة العسكرية وهو يشاهد الأسود تترك منطقتها وتبتعد ببطونها الخاوية عن الغابة، ارتبك وصاح على مدرب السيرك:

– ماذا نفعل؟... إنها تهاجر!

مدرب السيرك ألقى نظرة تفحصية على كلاب التجسس السمينة ثم قال:

– اقتلوها! اقتلوا أكبر عدد ممكن من الأسود، احذروا! حافظوا على جلودها!

* * *

في يوم الحفل، المدرب التقط الإشارة أن القائد في مسيره إلى كتيبة الأسود خلال جولته التفقدية بين الكتائب العسكرية والمتطوعة لخدمة الوطن والقائد، وبإشارة إصبعه بدأت الأسود الزئير بهدوء ثم ارتفعت أصواتها مع حركة يديه إلى الأعلى حتى بلغت قمة الزئير مع اقتراب القائد من الكتيبة، ثم انخفضت نبرة الأصوات مع حركة يدي المدرب إلى الأسفل حتى انتهى الزئير

مع ابتعاد يديه عن بعض وفتحهما على آخر اتساعهما، ثم حنت رقابها الأسود أسوة بانحناء رقبة مدربها عندما مرَّ القائد من أمام الكتيبة ما جعله يقف معتزًا ومفتخرًا يحيِّيها.

بعد ذلك حان دور الطهاة الوطنيين ليعبروا عن ولائهم، ومثَّلتهم امرأة شابة حملت طبقًا من الأكلات التراثية يحتوي على اللحم المشوي وقدمته للقائد، بعد الإشادة بها وبجميع الطهاة، القائد فتح الطبق وفاحت رائحة اللحم المشوي في الفضاء، الكلاب التي انهمكت في التمارين كثيرًا خلال الأيام الماضية، ولم يكن في متناولها اللحم المشوي كما كان في الغابة، حالما شمت الرائحة انقضت على طبق الرئيس وهي تنبح بصوت عال، وتركت جلود الأسود ملقاة على الأرض في محل الكتيبة.

obeikan.com

المواطن الصالح

بعد اعتقال زميله؛ أنهى صالح علاقاته الضئيلة مع كل من كان على معرفة بجابر، لم يعلم ما الجريمة التي قادته إلى السجن، لكنه كان على ثقة تامة أن جابر مجرم، وظلَّ يردِّد لنفسه وللآخرين: "لو كان جابر بريئًا مثلنا، فلِمَ نحن نمشي في الشارع أحرارًا بينما هو أصبح سجينًا؟".

لم تبقَ صورة فوتوغرافية تجمعه مع جابر إلا وأحرقها، كما قام بحرق هاتفه الخلوي الذي حدَّث جابر به عدة مرات، لم يقتنع بإزالة الأرقام والأسماء، وفكَّر مع نفسه: "ربما الرسائل أو الاتصالات تبقى مخزَّنة في مكان لا أعرفه"، رغم أن مجموع حواراتهما في السنين الماضية لا يصل إلى ساعة وأغلبها كانت تدور حول الدوام أو الدراسة، غير أن ظنونًا مريبة أحاطت به: "من يصدق بأنه مجرد حوار عادي؟ والقاضي يستطيع أن يؤّول الكلمات كيف ما يشاء؟، مثلاً: كل شيء بخير؟ ربما فيها إشارة

إلى نجاح عمل تنظيم سري أو عمل إرهابي؟، أو أبلغ سلامي إلى الأهل، ما هو المقصود من الأهل بالضبط؟ كل الكلمات من الممكن أن تتحول إلى ألغاز لتغطّي على جريمة نكراء".

تأسف لنفسه كم مرة قائلاً: "لولا تلك الجيرة، لم ألتقِ بجابر ولم انجذب إليه البتة"، رغم أنه قد أنهى صداقته مع جابر منذ سنوات حين كانا في السنة الأولى من الجامعة، لأنه ذات يوم دخل إلى غرفة جابر في السكن الجامعي ورأه يستمع إلى أغنية "لقد صرخت في عروقنا الدماء"، ومذاك الحين استوعب أن مشرب جابر في الحياة يختلف عنه جذريًا، وظل يردد لنفسه: "ما يجمعني بهذا الشخص الذي ينشد الموت؟ أنا الذي طالما كنتُ أبحث عن الحياة ولم أرحب بالموت يومًا، ما ترك لنا الأموات سوى شبح الموت؟ الأحياء من يسكنون في القصور، ويقودون السيارات الفاخرة، من يدردشون بمرح في المكاتب والدوائر الحكومية، من يفردون الليل ضوءًا في أحضان عشيقاتهم، هم من يبنون الظلال والأمان لعوائلهم؛ هم من يصنعون الأوطان".

تذكر صورة توجد في مكتب مدرسته الابتدائية تظهره مع فريق كرة القدم المدرسة وهو واقف بجانب جابر، وتساءل في نفسه: "كيف أصل إلى هناك لأحرقها؟" ثم تمنى بأن لا أحد ينظر إلى الأعلى ليراه، أو لا أحد يتذكره وقد مضت عقود على تلك الأيام.

* * *

منذ ما يقارب عشر سنوات، كان يعمل مدرسًا لمادة "الدين والحياة" في المدارس الحكومية، لطالما كان معلمًا منظمًا ومنضبطًا في العمل، لم يصل يومًا بعد السابعة والنصف حين يبدأ وقت المدارس رسميًا، ولم يخرج إلا بعد أن ينجز عمله كاملاً، لم يبقَ احتفال أو مراسم تأبين أو مهرجان في المدرسة أو دائرة التعليم إلا ويحضره، كان عفيف اللسان وطيب المعاملة قلما يحتج على شيء حتى ولو كان ظُلمًا موجهًا له، كان رمزًا للصبر والنجابة بين زملائه...

مع هذا، اعتقال جابر ضرب استقراره من الجذور، كلما فكر لم يصل إلى شيءٍ يثبت جريمة ارتكبها حين كان مع جابر، لكنه ظل يفكر: "يمكن أن أكون مخطئًا، في هذه الأيام وفي زحمة الأحداث من يثق بذاكرته؟"

منذ سنين وهو لم يدخل بيت جابر ولم يستقبله في بيته، لم يلتقيا خارج الدوام بتاتًا سوى صدفة أحيانًا كانت تجمعهما في بيت صديق أو مراسم تأبين التي خلت السلام والتحية قائمة بينهما، وفي وقتها كان يتجنب الجلوس بالقرب من جابر.

* * *

في تلك الليلة المشؤومة، شهرين بعد اعتقال جابر، مع مغيب الشمس أحس صالح بالخطر وكلما اتسعت قُبَّعة الظلام شعر بأن صراخ سيارة الشرطة يرتفع في أذنه، وظلَّ على هذه الحالة لساعات وهو يتألم بين الموت والحياة ويتساءل في سره: هل اعترف جابر؟ هل أخبرهم عني؟ ثم توجه إلى السرير في الساعة العاشرة مساءً ليهرب من القلق والانتظار المميت، توقفت نظرته على وجه زوجته التي استغربت قصده في النوم المبكر،

وفكّر في نفسه: ماذا يحل بها وبطفلينا إذا حُكِم عليّ بالسجن أو ربما بالإعدام؟.

تمدد على السرير وأغمض عينيه في محاولة لإزالة كل تلك الكوابيس التي كانت تجتاحه في الصحو، لكن بلا جدوى، صداع غريب كاد يقتلع عينيه، شعر بأن أحصنة غريبة تركض في رأسه وتجره خلفها؛ فتربع على السرير واضعًا راحتيه على عينيه ليطرد الأحصنة من رأسه، بعد هنيهة فتح عينيه خائبًا وأدار بصره في الغرفة بحثًا عن شيء آخر يجهله، غمزت له علبة السجائر وتوجه نحوها بسرعة، استل واحدة وأشعلها وأخذ ينفث دخانها في سماء الغرفة، حاول أن يبتعد مع سحب الدخان عن تلك الهلوسات المخيفة التي كانت تحاصره منذ ساعات، التدخين كانت جريمته الوحيدة التي يقترفها هنا بين حين وآخر، لكنه لم يشعل سيجارة خارج البيت قط، ولا أحد من زملائه يعرف بأنه يدخن.

لم يبتعد كثيرًا حتى رجعت الأحصنة تصهل في رأسه، تذكر جابر، قد دخن معه كم مرة حين كانا زملاء دراسة في عمر

خمسة عشر عام، لعن حظه وتمنى في سره أن جابر نسى هذا الحدث، ثم اقترب من النافذة وبدأ ينفث دخانه إلى الخارج ما يفعله عادة ليقلل شتائم زوجته، فالهواء الجديد جعل النار تركض في جسد السيجارة، أدار رأسه إلى منضدة الزينة ليستل سيجارة أخرى قبل انتهاء الأولى، فصدمته العلبة: "وينستون، وينستون" أخ... لماذا ابتعتُ هذه السجائر؟، هذه سجائر... ج... ج... جابر، هذه ما كان يدخنها جابر دائمًا، الكل يعرف هذا... هل القاضي سيحتاج إلى أدلة أخرى لكي يتأكد بأننا نلتقي في مكان ما لنخطّط لشيء وندخّن هذه السجائر؟، لقد انتهيت"، أخذ يرتجف وفلتت من بين أصابعه السيجارة وسقطت في سلة المهملات، اتجه نحو الفراش مستسلمًا وصامتًا.

لم تمر فترة طويلة حتى شعر بأصابع ثقيلة تضرب على كتفه:

– قم يا رجل! ما بك ترجف؟!

التفت ورأى جابر يتطلَّع إليه بنظرته الثاقبة ويدخن سيجارة وينستون ويضحك، جفَّ ريق صالح والتهب وجهه وأخذ ينسحب على السرير، زحفًا على مؤخرته حتى الجدار سدت

عليه الطريق، أغمض عينيه واندس تحت الغطاء مرتجفًا، غير أن جابر أزاح عنه الغطاء، وسمعه يناديه:

– قم! ما بك؟!

قرأ ما يعرفه من أدعية ليبعد جابر ثم رفع صوته قليلاً وهو يردد:

– لا... لا أعرفك... ابتعد! لم أرك في حياتي...

ارتفعت ضحكات جابر في مسمعه وهو يقول:

– لكني أعرفك جيدًا.

سمع صراخًا ملأ البيت، وارتعد خوفًا! توسل إلى جابر:

– أرجوك ! ارحل! لا أريد أن يرانا أحد معًا.

ثم رأى جابر يشعل سجائر كثيرة، ويوزع نيرانها ورمادها على أشياء الغرفة، ويقترب بالسيجارة الكبرى نحوه... سمع صوت السيارات هذه المرة تحديدًا عند باب بيته، وتوسل إلى جابر:

– حددوا مكانك! ألم تسمع صوت سيارة الشرطة في الباب؟

الدخان ملأ غرفته والنار لسعت أصابعه فجمع رجليه في بطنه وانهارت دموعه:

– ارحل يا رجل! أحلفك بكل تلك الطفولة والصداقة التي جمعتنا، اهرب من النافذة! لطالما كنت أحبك يا جابر! لكني لم اتجرأ على صداقتك، ارحل!.

بدأ ينسحب جابر رويدًا رويدًا حتى غاب عن نظره تمامًا... حاصرته النار في الغرفة، فالتف ببطانيته ونادى زوجته وأطفاله، غير أنه لم يسمع صوتًا منهم، هجيج النار كان سيد المكان، أوصل جسده المحترق في عدة نقاط إلى النافذة، مد رأسه إلى الخارج وهو يصرخ:

– أنقذوني! أنقذوني!

لا أحد انتبه لوجوده، واجتاحته النار تمد ألسنتها الحمراء نحوه بولع، هرب ببصره من النافذة ورأى رجال الإطفاء يخرجون بثلاثة نعوش من العمارة، وبعد هنيهة غاب عويل سيارات الإسعاف عن أذنه.

حلقة المتسولين

كانت تملأ حيزها الصغير من الشارع قبل الساعة السابعة صباحًا، تسند ظهرها إلى السياج الحديدي وتسحب الهواء إلى رئتيها قبل أن تشحنا بالدخان، ومع اقتراب أول الموظَّفين في وقت مبكر تتقرفص في عباءتها على الإسفلت عند البوابة الجنوبية لشركة البترول وترفع صوتها بالدعاء لهم.

أحيانًا كانت تصطحب ابنتها معها، واعتدتُ أن أرى الصغيرة تضع رأسها على ركبة أمها وتضرب بقدميها على السياج غير آبهة بحركة الشارع في أول الصبح، كانت الفتاة تبلغ من العمر نحو عشر سنوات وشعرها المجعد كان متناثر بفوضوية خلف ظهرها، وشالها الرث والكبير كان عالقًا فوق كتفيها الصغيرين، ومعطف كبير ومهترئ طول السنة كان يحميها من لسع البرد وجلد الشمس.

كان يلتبس علي التمييز بين ألوان المعطف والعباءة، ووجوههما من بعيد، ولم أر سوى كتلة من الرماد، كأن الشمس مضغتهما مع ما عليهما من أزياء وتفلتهما إلى الإسفلت دونما يرحب بهما ظلٌ.

كنت أراها على مدى عامين عند بوابة الشركة ولم تثر اهتمامي، وفي الأهواز مشاهدة المتسولين عند مداخل الدوائر الحكومية ليس بالأمر الغريب، إلى أن حلت تلك الليلة الشتوية والمرأة المتسولة أقبلت علي من الأعماق لتسعفني في ورطتي، قد كنت منهمكة بخربشة أوراقي في يومها في مكتبي ولم أستطع إنهاء نصي الأسبوعى الذي كنت أقدمه بانتظام إلى مجلة "النظرة الثاقبة" التابعة لشركة البترول، كنت بحاجة ماسة لتحرير نصًا ممتازًا عن انخفاض نسبة الفقر في الأحياء المجاورة لحي شركة البترول؛ نتيجة لنشاطات الشركة ذات المنفعة العامة، لأتمكن من تجديد عقد توظيفي لسنة أخرى وبراتب أعلى، لكني لم أستطع تدوين أو تلفيق أي جملة منذ أيام.

استلقيت على سريري متعبة في ساعة متأخرة من الليل، وسرعان ما وجدت نفسي عارية وخائفة في الشارع العريض أمام بوابة الشركة، لم أملك سوى مسودتي البيضاء التي كنت أرفعها في الهواء واستجدي من المارة كلمات لأطعم أوراقي الجائعة، لم أجنِ سوى لسع الرياح الباردة، وتقرفصت على الإسفلت أدفئ نفسي، ثم انتبهت لعربي وطفقت أسرّد أوراق مسودتي لأستر بها عورتي.

بعد هنيهة أرعبني صفير نسر كان يشم الإسفلت ويقترب مني، فجريت أركض بسرعة هاربة منه، كلما ركضت لم أرَ سوى الإسفلت أمامي والنسر الخلفي، وإذا بها المرأة المتسوِّلة اتجهت نحوي بعيونها الثاقبة، لوحت لي بيدها ثم غابت في الضباب، انطلقتُ مسرعة نحوها حتى انتهى الإسفلت وغاب النسر، وذرات التراب كانت تتصاعد أثر قدمي، اختفيت خلف جذع نخلة ظهرت في مكان المرأة المتسولة، بعدئذ شعرت بجوع شديد وأدرت رأسي أبحث عمَّا يسد رمقي، غير أن حفيف الأيادي أسمرني في مكاني.

رفعت بصري إلى الأعلى وشاهدت الأصابع الصغيرة والكبيرة كانت تنهال على التمرات القليلة في أعالي النخلة من كل صوب وحدب، ظللت في حيرة من أمري؛ بين تحمل الجوع أم مد يدي بين الأيادي، وإذا بها المرأة المتسوِّلة أقبلت علي مرة أخرى ودون أن تنظر إلي رفعت رأسي بيدها وسكبت سائلاً دافئًا ولزجًا يشبه طعم الدبس في فمي، ما أعادني منتشية إلى سريري، ثم انصرفتْ عني وتوجهتْ إلى إطعام آخرين لم أرهم في الضباب، لكني عرفت أصوات بعضهم مثل صوت الحارس الأجشّ الذي كان يسعل بشدة.

نهضت من النوم على غير عاديتي بدقائق قبل أن يفزعني المنبه، التهمتُ إفطاري بسرعة واتجهتُ نحو الدوام، توقفتُ عند البوابة الجنوبية أتأمل وجهها ولم أتجرأ على الاقتراب منها ثم انصرفت إلى مكتبي.

ظلَّتْ طلتها الملائكية في الليل وصورتها الرمادية في الصباح طيلة النهار تشغل بالي، أعددت نصي المفضل بسرعة وأرسلته

إلى السكرتيرة وتركت نصوصًا كثيرة مفتوحة الأفواه في مكتبي وعدت إلى المرأة المتسولة.

استقرت نظرتي على يدها المتشققة التي روتني في الليلة الماضية، كانت يداها تبدوان كجزائر منسية رحل عنهما البحر والحياة واحتلتهما وحوش الفقر والشقاء، هممت أن أقترب منها؛ غير أن شيئًا ما منعني وأشعرني بالخوف، أحسستُ أن الإسفلت يخدعني، ولم تكن هي على قرابة مترين بل تراءت لي جبال وأودية ونيران كانت تفصلنا، كأن الشمس نفضتها من خيال الصباح وألقت بها بعيدًا عن الشارع... كنت أتأرجح بين المنظر والخيال وإذا بالفتاة الصغيرة تمسك بحافة معطفي وتقول:

– الحارس يناديك...

رفعت رأسي نحوه وفهمت إشارته أني ركنت سيارتي في مكان غير مسموح، رفعت يدي بعلامة سأرحل سريعًا ثم اقتربت منها وتراءى لي الدم ينْزف من شقوق يديها، فناديتها بفزع:

– يداك! ألم تَرَيْ النَزيف؟ سأصطحبك إلى مستوصف بالقرب من هنا... لا تقلقي! سأدفع تكاليف علاجها، رافقيني!

– أنتِ لا تقلقي! سيجف الدم على كل حال!

قالت هذا وأخفت يدها تحت عباءتها، ظللتُ صامتة لهنيهة لم أعرف ماذا أقول، ثم مددت يدي إلى جيبي وقبل أن تخرج بشيء اقترب إلينا حارس البوابة محتجًا، وصاح عليها:

– اذهبي من هنا! ابتعدي وإلا سأتصل بالبلدية.

ثم أخرج من غرفته الحديدية عباءة سوداء وألقي بها على البنت قائلاً:

– غطي نفسك! إنك أصبحت كبيرة، ولا يحق لك أن تجلسي هنا بدون حجاب.

صوته الغليظ أرعب البنت الصغيرة ودلفت خائفة إلى حضن أمها، تجاهلته ونظرتُ مبتسمة إلى البنت الصغيرة التي كانت تنتقل ببصرها من يدي الفارغة إلى فمي المغلق، حاولت أن أجعلها تضحك غير أنها لم تعر اهتمامًا لحركاتي، الأم دون أن تهتم بي كانت تطلب المساعدة من المارة بصوت عال، لكنها فجأة حولتْ نظرها نحوي وسألتني بنبرة يائسة:

– أنت من جريدة أو من إذاعة؟

ابتسمتْ الصغيرة وصففتْ شَعرها بأصابعها وسألتني:

– هل ستلتقطين صورة لي؟

فتحت حقيبتي وأخرجت كل ما أملكه من نقود وقدمتها لها، لكنها لم تحرك ساكنًا وظلت تشرئب بعنقها إلى حقيبتي، نهضتُ منهزمة أطقطق أصابع يدي الفارغة وإذا بصوت الأم يطرق رأسي:

– الحمد لله... قد أخذتِ حصتكِ من نزيفنا.

obeikan.com

obeikan.com

الخنساء

ضرب على رأسه بأطراف أصابعه، تمنى لو يستطيع أن يعيد عقارب الزمن إلى الوراء ويبتعد بحبيبته عن ذلك اليوم المشؤوم، ويغير اتجاه الرياح الضاربة لترحل بالغربان الغريبة إلى ديارها النَّائية، وتغنى العصافير الأليفة في يوم زفافه؛ غير أنه لم يجنِ سوى الآهات، ضرب رأسه بالجدار وهو يقول في سره: "ليتني سرقت قسطًا من النقود وأقمت حفلي في المدينة ولم ألتفت إلى ذلك اليوم الأسود؛ ليتني اتصلت بأحد نواب المدينة وأخذت ترخيصًا لحفلي ولم أدخل الحرب مع رضاشاه".

كلما رحل بذاكرته إلى ذلك اليوم الأسود، غرق في دموع حبيبته خنساء وهي تودعه باكيةً وتشرد بعيونها إلى خيام القبيلة المتلاصقة في سهلهم الشاسع التي لم تتدخل في القضاء الذي ترجَّل من حصان رضاشاه.

لم يكن شح المال وحده قاد جاسم إلى الخروج من المدينة والرجوع إلى مسقط رأس أبويه للاحتفال بزواجه، فضلاً عن هذا لو دبر المال، دائرة شؤون القاعات لم تسمح له بإحضار فرقة موسيقية عربية، وإن دبر المال وسمحت له الدائرة، إنه لم يعجب بفتاة في المدينة قط، وكيف يختار زوجة منها؟، فأدار ظهره للمدينة وتوجه إلى القرية ليختار شريكة حياته.

بحث في القرية ليجد فتاة شابة وجميلة لم تطأ قدماها المدينة قط، ولم تعرف لغة سوى العربية وتجيدها بطلاقة، ونواحها يرثي حاله وماضيه، وترتجل الشعر الحماسي وتملأ قلبه لوعة وروحه حماسة لاسترجاع الزمن الجميل، فضلاً عن هذا تجيد امتطاء الخيل، وطهي الأكلات التراثية، وتعرف كل ما يرتبط بذاكرة شعبه الجمعية؛ فخطب الخنساء وجزم لها أنه لن ينتقل إلى المدينة رغم أنه قادم من هناك، وسيقيم لها حفل زواج تراثيًا يكرم تاريخهم المجيد.

لاقت فكرته ترحيبًا واسعًا من قبل قبيلته وقبيلة خنساء، وأشادوا به على هذا الحفل المشرف، وكبار السن تبرعوا

بخِرفان كثيرة من مواشيهم للمشاركة في هذا العرس التاريخي، كما تبرع الشباب بتكاليف إحضار الشعراء والفنانين الشعبيين، وخيرة الطهاة التقليديين تطوعوا للطهي في الحفل كي لا يتناول الضيوف سوى طعم الماضي الأليف المندثر تحت عباءة الواقع الغريب والأليم في المدينة.

أسبوعين قبل زواجه، السهل القريب من القرية اكتظ بالخرفان، والطهاة والشعراء والفنانين والمحتفلين، أرسل جاسم بطاقات دعوة إلى جميع أقربائه وأصدقائه وكل من يعرفه كي يحضروا حفل زواجه طيلة أسبوعين، الفكرة أعجبت الكثير واستقر معه أهله وأعمامه وأصدقاؤه أسبوعين قبل زواجه في الخيم، ينشدون التاريخ المجيد، الجميع ارتدوا الأزياء التراثية، وحملوا السيوف القديمة، واستقروا في خيم متراصة، خيم النساء كانت تبتعد نسبيًا عن خيم الرجال، وتتوسطهما الساحة المهيأة للحفل.

طيلة الأسبوعين كانت المراسيم تبدأ مع مغيب الشمس؛ في أول الحفل الخنساء تنعي كل الشهداء بدءًا من شيخ خزعل

وحتى محيي الدين آل ناصر وأخيرًا يتفجر المحتفلون حزنًا وبكاءً وهي تنعي عبد الله ابن عم جاسم الذي استشهد قبل عام، بعدئذ يقدم الشاي المهيل والقهوة العربية، حتى يحين وقت صلاة المغرب، وبعد إقامة الصلاة تفرش الموائد لتناول "المفطح" والأرز والخبز الحار، حتى يأتي دور الشعراء الشعبيين بإلقاء القصائد الحماسية الرنانة التي تغرق المحتفلين في الحنين إلى الماضي وتجعلهم على أهبة الاستعداد للنضال، ثم يبدأ شعراء الفصحي ليطفئوا النار رويدًا رويدًا ببلاغة شعرهم وصورهم البعيدة، بعدئذٍ يصعد إلى المنصة الفنانون ويحيون الليل بالغناء والرقص التراثي حتى يدركهم الفجر، ويأخذهم النعاس واحدًا تلو الآخر، فيناموا حتى ساعات متأخرة من النهار كي يستعدوا لليلة راقصة أخرى.

في الليلة السابقة لحفل الزواج انتهى المحتفلون من المراسيم مبكرًا ليجمعوا طاقاتهم لليلة العرس، واتجهوا إلى خيمهم بعد العشاء مباشرة، ولم يلبث أن على شخيرهم في السهول الخضراء.

جاسم هو الوحيد الذي لم ينم الليل وظل ساهرًا في خيمته يعد الثواني لينبلج صبحه الكبير، وهو يعتز بنفسه على حفله المميز الذي أيقظ الماضي من تحت تراب النسيان، وعلى أحر من الجمر كان ينتظر بزوغ الشمس وهو يتخيل نفسه مرتديًا بدلة عرسه التراثية يمسك بيد زوجته العابقة برائحة الماضي الأصيل، وترافقهما الزغاريد و"الهوسات" ورقص الجوبي إلى بيتهما الطيني في القرية.

كان ينتظر زقزقة العصافير لينهض من مضجعه فإذا بنعيق الغربان سبق الغناء إلى مسمعه، فخرج غاضبًا ونثر حبات قمح قبالة خيمته ليدعو العصافير تغرد للخير في فجره، لعل الغناء يطرد النعيق، غير أن حبات القمح لم تعد قادرة على فك أسر الأغاني، ولم تنهض العصافير من نومها غير الاعتيادي في ذلك الصباح المتجهم بسحبه السوداء، رياح غريبة ضربت خيمهم قبل أشعة الشمس ونهض المحتفلون من نومهم فزعين، هرعوا بين اليقظة والكابوس في اتجاهات مختلفة وتشبثوا بأقرب الأعمدة ريثما تمر العاصفة لكنها لم تمر مرور الكرام واقتلعت

أوتاد خيمهم، وقتلت كثير من الناس والمواشي في ضيافتها، ونهبت أغلى من كانوا يحتفلون من أجله.

عندما عصفت الرياح أغمد جاسم سيفه في زاوية الخيمة عوضًا عن الأوتاد التي أصبحت واهنة بفعل العاصفة وتشبث مع رفاقه بسيوفهم، جاثمين على الأرض ليحموا رؤوسهم من لسع الرياح ويحولوا دون تحطم الخيمة.

بعد لحظات، عويل النساء علا على عويل الريح وعصفت الغيرة برجولة جاسم، تأفف على نسيانه لخيمة الخنساء وبحث عن سيف آخر في الخيمة ولم يجد، اختلط صراخ النساء مع صهيل خيول غريبة، وهرع جاسم إلى خيم النساء أبيض اليدين، لم يبعد أمتار حتى أوقفته بندقية برنو كان يوجهها جندي نحوه ويلزمه بالسكوت، ظل جاسم يحدِّق في الجندي وإذا بالضربات تنهال عليه من كل صوب وحدب حتى سقط على الأرض، أمسكه جنديان وجراه إلى الخلف، ربطا يديه خلف ظهره وكمَّم أحدهما فمه بكوفيته السمراء، ثم ابتعدا عنه قليلاً وبعد أداء التحية العسكرية، قال أحدهما:

– حاضر! سيدي رضاشاه.

ترجل رضاشاه من حصانه، اقترب من جاسم وبصق قريبًا من قدميه وناداه بِامتهان:

– أنت العريس؟ أيها القذر! أعطوه مرآة ليرى نفسه! كيف تتجرأ على العرس؟ طقوسك البدائية قد عبثت بنومنا في الليالي الماضية! ألم تعلم أننا في نزهة الربيع؟ لا نريد أن نسمع صوتك بعد الآن أيها العربي! من الآن وصاعدًا اشرب الحليب من ضرع ناقتك دون طقطقة الأوعية!، وكل سحاليك مع احمرار الشمس! ونم قبل طلوع القمر! هذه السماء لنا! واشكر ربك أننا سمحنا لك أن تقيم خيمتك تحتها.

ثم قهقه بصوت عال وتبعه الجنود بضحكات مصطنعة، بعد ذلك صاح:

– احضروا العروس!

خرج جنديان من خيمة النساء يمسكان بالخنساء وأوقفاها إلى جانب رضاشاه، أمسكها من حنكها ورفع رأسها ثم ضرب على خدها قائلاً:

– هذه الجميلة سترحل معنا إلى البلاط، نهذبها وننزيل عن جلدها الاسْمرار، وننثر في فمها حكاياتنا، ونمهلها فترة من الزمن لتصبح صالحة لصحبة الشاه.

ثم أمر الجنود بإشارة إصبعه برفع الخنساء خلفه على حصانه، صرخت هي وحاولت الإفلات، ما أثار سخط رضا شاه وصاح عليها بلهجة احتقار وتهديد:

– إن استمرت في إيذاء أُذني بصوتكِ المبحوح، سأضطر إلى قطع رأس ذلك العاشق الذليل...

في إشارة بحاجبيه إلى جاسم، وصمتت الخنساء مرتعبة وظلَّ صدرها يعلو ويهبط في محاولة لخنق صوتها، وباتت الدموع تترقرق في عينيها وهي تمد يديها في الهواء نحو جاسم، ضرب رضاشاه بمرفق يديه على يدها وبلهجة تحكمية خاطبها:

– تشبثي بظهري حتى نهاية الطريق!

وأمسكت به مطيعة وخائفة وعانقت جاسم بعينيها الغارقتين في الدموع؛ أصبحت عينا جاسم بحيرتين من الدم يفور فيهما الغضب، ويمتزج بالدموع التي تطوف في عينيه كسفينة

مكسورة فقدت قبطانها في الطوفان وتستعصي الرفْء على شواطئ خديه، ظلت تعانق الغضب لتبلله بقطرات من الأمل.

انتفض الحصان قليلاً والخنساء أمسكت لا إراديًا بحزام رضاشاه ما جعله يبتسم وأمسك باللجام وغمز لجنوده قائلاً:

– بدأت قصيدتنا مبكرة مع الخنساء.

أشاحت الخنساء بوجهها من عيون الجنود الحادة إلى خيام المحتفلين، وتراءت لها عيون كثيرة كانت تتلصص النظرات من شقوق الخيم وتتابع الحدث، فأغمضت عينيها وسارت مع حافلة رضاشاه إلى بلاطه.

بعدما ابتعدت القافلة بغنائمها عن السهل وصعدت الجبال المشرفة على قصر رضاشاه؛ خرج المحتفلون من مخابئهم وأحاطوا بجاسم باكيين على نهب عروسه، بعض منهم اقترحوا ألا يتم نشر الخبر بين القبائل الأخرى ودعوا الجميع أن يتسللوا إلى المدينة ليلاً ويتناسوا الحدث ويعلنوا موتها خشية الفضائح، لكن رجل هرم صرخ غاضبًا وخاطبهم بلهجة حماسية:

– هذه القضية لا يسكت عنها! إن سكتنا اليوم سوف نفتضح غدًا أكثر! خنساء عرض جميع القبائل، وهتكها رضاشاه فعلينا أن ننشد دعم القبائل ونشن هجمة على قافلة رضاشاه قبل أن يصلوا إلى بلادهم.

ساد الصمت بين الرجال يفكرون في كلامه وبعد هنيهة علا صوت المعارضين وهم يخاطبونه:

– وبعد؟ ألم تقرأ التاريخ يا عمي؟ جيش رضاشاه قد استولى على جميع الممالك وقهر جميع الثوار، سنكون وجبة سهلة له.

ظلوا يناقشون الأزمة لمدة من الزمن ونسوا جاسم ويديه المشدودتين إلى الخلف وفاهه المُكمَّم بالكوفية.

* * *

مضت سنوات عديدة على غارة رضاشاه، وجاسم ظلَّ يبكى ذكرى الخنساء، رجع المحتفلون إلى بيوتهم في القُرى والمدن ونسوا أو تناسوا الحدث، لكنه كما عاهد خنساء لم يرجع إلى

المدينة وخيّم بالقرب من الجبال المشرفة على قصر رضاشاه، وفي كل يوم كان يتنكر بهيئة مختلفة ويتسلل إلى المدينة ويقترب من القصر عله يسمع خبرًا من حبيبته الخنساء.

ذات يوم سمع من الباعة المتجولين أنه سيتم عرض غنائم الشاه من خيول، ونساء ومجوهرات بمناسبة عيد ميلاده في آخر جمعة من الشهر الحالي في الساحة المركزية للمدينة، طار قلب جاسم يرفرف فرحًا وتساءل في نفسه:"كيف أصبحت الخنساء بعد كل هذه السنين؟"، وتخيلها تلوح له بيدها من بين الحشود، غمرته نشوة اللقاء المرجو وتسلل سريعًا إلى خيمته القريبة من الحدود، امتطى حصانه واتجه نحو قبيلته لينبئهم بالحدث القادم.

ذاع الخبر بين القبائل وانشغل وجهاء القبائل بالمناقشات، كل واحد اقترح خطة لإنقاذ الخنساء، أحد زعماء القبائل الشاب الذي سمع قصة الخنساء في التو وطفق الدم يفور في عروقه، جمع الشيوخ في مضيفه ورفع سيفه في الهواء وخاطب الجمع:

– ماذا تنتظرون؟ لا تضيعوا الفرصة لإعادة كرامتنا! دعونا نهجم عليهم أثناء الاحتفال، إنهم ملتهون في اللَهْو وعلى

الأرجح لم يحملوا سلاحًا، إذن سوف نستطيع هزيمتهم وتحرير الخنساء من قبضتهم.

هز الشيوخ رؤوسهم رفضًا قائلين:

– إنه قرار متهور ولا يناسب قدراتنا وسينتهي بالفشل وإبادتنا.

زعيم آخر عدّل من ثورية اقتراح الأول وأكمل:

– نستطيع أن نتبع حرس الشاه في غفلة منهم لنرى أين يحتجزون الخنساء في نهاية الحفل، وبعد تحديد المكان سنقوم بتهريبها خفية على يد خيرة مقاتلينا...

رُفض اقتراحه كما الأول ونهض أحد الشيوخ غاضبًا وناداهم:

– ألم تفكروا ماذا ستفعلون أنتم والخنساء بعدها؟ وإن حالفكم الحظ، ستعيشون طيلة حياتكم مختفين، رضاشاه لن يسكت على فعلتنا، الحل الوحيد هو أن الشاه يطلق سراح الخنساء برضاه.

* * *

اجتمع وجهاء ورؤساء القبائل في مضيف شيخ قبيلة جاسم لعدة أيام للخروج بآلية لإقناع رضاشاه أو الضغط عليه ليطلق سراح الخنساء، كان الشيوخ والزعماء يميلون إلى إرسال بعثة للقاء رضاشاه تحاول إقناعه أو المساومة معه لإطلاق سراح الخنساء، وبعض منهم وسّعوا إطار الحل واقترحوا:

– وإذا الشاه رفض، فليدفع فصلاً عشائريًا مقابل أخذها...

الرأي الذي اعتبره الآخرون منافيًا لقيم القبائل... تفرّق الشباب في أنحاء المضيف يقدمون الشاي والقهوة والطعام، والشعراء أنشدوا أعذب الكلام في فترات الاستراحة كي يشدوا من عزم المجتمعين بأشعارهم الحماسية، والنساء المنشغلات في الطهي وإعداد الطعام كانت تحيي الجمع بالزغاريد من بعيد، وهنالك فئة قليلة من الرجال كانوا يقفون قريبًا من المضيف لم يدخلوه ولم يبتعدوا عنه، ظلوا واقفين طيلة هذه الأيام يحملون أسلحتهم ويهمسون:

– طالما سلاحنا يعمل لا نخشى فشل المحادثات، وما أخذ بالقوة لا يرجع إلا بالقوة.

* * *

وأخيرًا حلَّ يوم الموعود، وفد من أصدقاء جاسم القدامى سمعوا بالخبر وتسللوا ليلاً من المدينة إلى القرية ليقدموا حلهم لتلك الأزمة الضاربة في القدم، واستقبلوا بالرمي والهوسات وجلسوا في صدر المضيف ببدلاتهم الرسمية اللامعة، وأغلبهم كانوا ذوي مناصب إدارية مهمة في المدينة.

أهل الطقوم كما أُطلق عليهم من قِبل أهل القرية استمعوا إلى حلول الشيوخ، ثم بدأ الكلام أكثرهم انتفاخًا في البطن:

– هذه الحلول قد أكل عليها الدهر وشرب، الحلول العسكرية لم تأتِ بنتائج سوى موت أبطالها وتوارث الموت في الأجيال، والحلول القبلية مثل الفصل تنتهي بتكريس الشرعية لنهب رضاشاه للخنساء، لم يبق أمامنا سوى الحلول الحديثة أو ما تسمى "الضغط المدني"، لنغير مسار التاريخ ونجني ثماره في المستقبل، إننا سننال تعاطف جماهير مملكة رضاشاه، وكذلك الرأي العام العالمي سيكون إلى جانبنا ليرغموا رضاشاه على فك أسر الخنساء.

لم يتعب ذو الطقوم الأنيقة كثيرًا حتى أخرسوا الجميع بلغتهم الفاخرة ومعلوماتهم المهيجة عن العالم الحديث، في اليوم التالي اجتمع رؤوس القبائل وأعيان المدينة في المضيف ومن ثم بدأ كلمته شيخ المشايخ بإمعان:

– أخيرًا وصلنا إلى قرار لفك أسر الخنساء مقابل أقل خسائر، حركتنا ستكون حركة سلمية تعتمد على كافة أبناء الشعب من الرجال والنساء والشباب والشيوخ والأطفال، في اليوم المحدد للاستعراض سنرتدي جميعنا أزياءنا التراثية والمنقوشة باسم الخنساء، ونتجه نحو ساحة المدينة وسنهتف بصوت واحد في حضور رضاشاه، وجماهيره، ووفود ضيوفه الأجانب: "الحرية للخنساء"، ونبقى هناك معتصمين حتى نرجع بها حُرة معنا.

* * *

اقتربت قافلة أهل الخنساء من حدود المدينة بعد ساعة منذ بدء الاحتفالات وتهيأوا للبدء بالهتاف، لكن أصوات الطلقات النارية ومكبرات الصوت أرعبتهم، وكبار القوم طلبوا من

الشباب أن يخفضوا أصواتهم حتى يتفقدوا المكان ويجسوا نبض الاحتفالات التي بدأت غريبة عنهم.

تم إسكان النساء والأطفال بعيدًا عن الواجهة خلف تلة ترابية، والشيوخ صعدوا ربوة قريبة من الحدود ليتمكنوا من متابعة الحفل والإحاطة بالمنطقة، كما اختير عدد من الرجال المحنكين في السياسة الذين يجيدون لغة رضاشاه، ويرتدون أزياء تشبه أزياء رجال مملكة رضاشاه وتوجهوا إلى ساحة الحفل.

* * *

مرَّ وقت طويل على رحلة السياسيين ولم تصدر منهم سوى علامات تدعو القافلة إلى الصمت والصبر حتى يحققوا ما على عاتقهم من مسؤولية، وأخيرًا قبل الغروب بساعة رجع السياسيون مبتهجين وهم يحيطون بشابة حسناء وخرساء من مدينة رضاشاه، ترنحت الشابة بينهم ثملة وضربت على رؤوسهم بقناني عَرَق نصف فارغة وانهال عليهم العرق وملأت المكان رائحته النتنة، ثم مدوا ألسنتهم ولعقوا بقايا العرق في

جيوب وأزرار أزيائهم... وقعوا على الأرض ضاحكين ثم نهضوا بضربة القناني واستمروا في اللعب لفترة من الزمن، في النهاية فرشوا السجادة الصغيرة التي حملوها معهم من المدينة على الأرض وجلست الشابة الخرساء وسطها ثم وزعت عليهم قطعًا صغيرة من الكعك التي جلبته معها من ساحة الحفل.

أشار السياسيون من بعيد إلى القافلة، التي لم يبقَ منها في محل التجمع سوى بعض المراهقين المتحمسين، ونادوهم:

– انسحبوا! انسحبوا! اخفضوا أصواتكم! هنا الناس لا تقول سوى يحيا الشاه!.

سلوكهم أثار غضب جاسم الذي مازال ملثمًا بكوفيته الحمراء، فنهض محاولاً أن يهتف باسم الخنساء؛ غير أنه كلما حاول لم يخرج من حنجرته صوت سوى بحة غير مفهومة أثارت ضحك الأطفال الذين تسللوا إلى الحدود في غفلة من الشيوخ وأمهاتهم.

obeikan.com

عروس النهر

"كوني ثقيلة! لا تستخفي! وإلا سيأكلك عبيد الماء (غول النهر)"، تلقيت هذه التعاليم الصارمة عندما بدأت أنزل إلى النهر لغسل الأواني الصغيرة أو للسباحة برفقة ليلى وباقي البنات، مذاك الحين الثقل أصبح مفهومًا غامضًا ومغريًا يدور في بالي، وأخذت ألاحق حكيمة – التي سمعت جدتي مرة نعتتها بالثقيلة – مِنْ مكان إلى آخر لأتشبه بها في المشي وأغدو مثلها ثقيلة وأنال إعجاب الآخرين.

في البداية خَمّنتُ أن الثقيلة تعني امرأة سمينة، تجر رجليها بصعوبة على الأرض، وفعلاً حكيمة كانت امرأة ممتلئة يتمايل جسدها يمنة ويسرة مع أي خطوة تخطوها، أنا وليلى بنت جيراننا كنا نصف خاصرتها برفوف الأواني وكانت ليلي تقسم بأنها تستطيع أن تضع كوبًا هناك دون أن يسقط.

كنتُ في سيري لاحتذاء حذو حكيمة فإذا بكفاية عبثت بإيماني وألقت بي في متاهة الشك، سمعتهم يقولون إنها فتاة ثقيلة، فالتبست المقاييس في ذهني وأعادتني إلى نقطة الصفر، "إنها يابسة، ولم يُثّبت جسدها على الأرض سوى العظام"، هكذا كانت تصفها جدتي، إذن كيف أصبحت الثقيلة؟ كنت أسأل نفسي باستمرار وأجول بناظري في أي مكان بحثًا عن مقاييس الثقل، وأصنف الناس والأشياء بالثقيلة والخفيفة.

ذات يوم رأيت نملة كانت تحمل قشرة بَذْرة وتصعد بها الجدار، كلّما قطعت مسافة هوت إلى الأرض؛ لكنها لم تيأس وتعيد المحاولة محملة بغنائمها، هزني الموقف وجريت مسرعة إلى ليلى وابن عمها خالد وناديتهما:

– تعالوا! شوفوا تلك النملة! هي ثقيلة لأنها تحمل قشرة كبيرة!

عارضتني ليلى بسرعة وقالت:

– النملة خفيفة، لهذا تستطيع أن تحمل هذه القشرة الثقيلة.

خالد ضرب الأرض بقدميه فتصاعد التراب حوله ولهنيهة ظننا أن الأرض بلعته، ثم قفز في الهواء ووقع على الأرض واقفًا، صرخ صرخة فائز ووجه سؤاله إلينا:

– هل أنا ثقيل أم خفيف؟

بعدئذ قهقه بصوت عال وتابع:

– أنا قوي، أجبن يا نابغات! القوي ثقيل لو خفيف؟

ليلى سبقتني وقالت:

– أنت خفيف، لولا خفتك ما استطعت أن تقفز في الهواء وتبعد من الأرض متجهًا إلى السماء...

لكني فكرّت بطريقة أخرى وقلت:

– خالد ثقيل، قبل قليل كادت أن تبلعه الأرض بسبب ثقل ضربه على حضنها، ألم تلاحظي التراب كيف أعمانا بعد سقوطه؟

ظللت لشهور حائرة في إدراك مفهوم الثقيلة وكنت كثيرًا ما أتساءل بيني وبين نفسي: هل أنا ثقيلة؟، وخلال اليوم كنت

أقفز من مكان مرتفع على الأرض لأرى وقع قدمي على التراب، وغالبًا ما كنت أستمر حتى أجرح نفسي، ومع ذلك كنت فرحة بتبعثر التراب أثر ضربي ومفتخرة بتقربي إلى رقم قياسي من الثقل، واندماجي في مجموعة النساء الثقيلات والمحترمات.

مع هذا كفاية ظلت سؤالاً غامضًا في بالي، كيف هي تعد ثقيلة؟، سألت أمي:

– أليست كفاية يابسة؟ كيف تصير ثقيلة؟

لكنها لم تعر اهتمامًا لسؤالي ومدت يدها في تنور الطين وأخرجت قرصة حارة ومدتها نحوي قائلة:

– كُلِي خبزك! ولا تهتمي بحكي النسوان.

إنه كان حكي الرجال، سمعتهم مرارًا يصنفون النساء من هي ثقيلة ومن هي خفيفة، أنا وليلى كنا نجلس تحت نافذة المضيف نزعم لعب الطين وفي الواقع كنا نتنصَّت عليهم، أحيانًا كانوا يستغرقون ساعات في الحديث حول النساء.

شعرت أن أمي خفيفة ولا تحب الثقيلات وهرعتُ نحو جدتي:

– كفاية يابسة، كيف تصير ثقيلة؟

جديّ أجابت عن السؤال بطمأنينة:

– كفاية لم ترفع عينها عن الأرض، ولم يمس جسدها أحد، ولم...

لم أنتظر شرحها الطويل، قد أدهشتني بداية الجواب وعثرت على لغزي وبدأت بالتمارين، من باب الغرفة إلى باب البيت، من باب البيت حتى نهاية الشارع، من الشارع إلى النهر؛ لم أرفع عيوني إلى السماء قط في رحلة واحدة، وفي النهاية حطمت رقم كفاية واستمررت بالمشي لدقائق عديدة مغمضة العينين في الشاطئ، في نهاية يومي أحسستُ بأني أصبحت ثقيلة جدًا ولم أستطع على أي حركة، فتناولت العشاء المتكون من التمن والزبادي في أول الغروب واتجهت إلى فراشي على السرير الحديدي في منتهى باحة البيت الكبيرة، ثم أجلتُ بنظري في السماء بحثًا عن نجمة تعانق أحلامي، وشعرت بتوافد نجوم كثيرة على سريري وأنا أقص عليهن أحلامي وأرجو منهن منالها، بعد

ذلك تساءلت هل النجوم الثقيلة مثل حكيمة ومثلي؟ لكن جفوني كانت أثقل منها وغطيت في نوم عميق.

في اليوم اللاحق، سردتُ لأصدقائي سيرة النجوم، وأضاءت في أذهاننا جوانب أخرى من سيرة الثقيلة الغامضة، لبثنا لعدة ثوان ننظر إلى السماء، ثم بدأت ليلى:

– إن النجمة التي نعلّق عليها آمالاً كثيرة، إذا لم تحققها تسقط من السماء، مثل حبل الغسيل إذ زادت الأزياء المبللة عليه، يهوى إلى الأرض دون أن يجففها.

لم يرق لي جوابها ولم أدعها تفسد ذكرى سعاديتي مع النجوم في الليلة الماضية وقاطعتها:

– النجمة ثقيلة ولا تسقط، بل تأتي لتحمل أحلامنا إلى السماء...

أصرت ليلى على رأيها:

– هناك نجمتان؛ نجمة خفيفة تظل تضيء السماء ونجمة ثقيلة تسقط على الأرض وتفقد ضوءها.

بعدئذ حان دور خالد:

– النجمة التي تسقط، هي مثل كفاية ثقيلة ولم ترفع نظرها عن الأرض، وتتيه في السماء ثم يلمسها شيء وتسقط.

– من يلمسها؟!

ارتفعت أصواتنا أنا وليلى معًا باستغراب نسأل خالد.

– ربما السحاب يلمسها وتصبح خفيفة وتهوى إلى الأرض.

قهقهت ليلى:

– الخفيفة تطير مثل الريشة ولم تسقط.

ثم وضع خالد يده على رأسي، وأمسك بيدي لثوان وبعدها لمس مؤخرتي في حركة سريعة وسألني:

– قد لمستك هل أصبحتِ خفيفة؟

ليلى التي كانت تكبرنا بثلاث سنوات سبقتي في الرد، وضعت يدها على خاصرتها وبتكبر قالت:

– هل تعرفان إذا امرأة ورجل يلمسان بعض في الليل ماذا يصير؟

بريق عينيها زادنا شغفًا أنها تملك الجديد من تلك المعلومات المهيجة، وخوفًا أن تندم على قولها، زعمنا أننا لم نعلم قط، فقربنا رؤوسنا من بعض، وخفضت صوتها وبدأت تهمس إلينا بمعلوماتها السرية عن الليل.

في نهاية ثرثرتها المهيجة، ظللتُ أفكِّر في الليل، لطالما كنت أحب الليل المتلألئ بنجومه وأحلامه، لكنه فجأة أصبح غامضًا وحرت كيف أصنفه؟ هل هو ثقيل أم خفيف؟، وتوجهت إلى جدتي كعادتي في الأمور الغامضة، غير أنها زادتني حيرة.

– قال سبحانه وتعالى:"وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسا"، الليل يستر الناس، في ظلامه تتساوى السهول والجبال، ويغفو فيه الجوعان والشبعان، وينهي المسافات ويحجب الهمسات واللمسات.

ظللت أتصور نفسي عارية وأحاول ارتداء الليل، وعرفت بأنها لم تعرف الجواب وليس من طبعها الشرود عن الموضوع.

ذكرني الليل بالملاية التي تنوح في المآتم، سمعتهم يقولون: "عباءتها السوداء كالليل القاتم وعيونها العسلية كالنجوم تمزق

الظلمة"، قد عرفت ألغازهم حين يصفون النساء وفهمت أن الملاية ليست امرأة ثقيلة، لكنها كانت محل اهتمام وموضوع حديثهم أكثر من حكيمة وكفاية، وفكرت لماذا لا أصبح مثلها خفيفة؟.

انتظرتُ الليل بشوق، وحين آمنت بأنه خيَّم بكل ظلامه على الأرض، أخذت عباءة أمي في غفلة منها واستبحت الظلمة في الغرفة المنعزلة عن باقي الغرف في البيت، وضعت أقدامي ببطء وحذر كي لا أمس الأجنة، الذين كانوا يجتمعون في الزوايا المظلمة كما تقول النساء، شعرتُ بأنفاس أخرى كانت تقاسمني الهواء في الغرفة وأشخاص آخرين كانوا يمرون بقُربي في الظلام، كرَّرت "بسم الله" عدة مرات لأبعدهم، وتابعت سيري نحو المرآة التي كنت أعرف مكانها في الغرفة.

ارتديت العباءة وغطيت وجهي بأردانها ولم يبقَ خارجها سوى عيني، ثم حدقت في المرآة لأرى ثقوب الظلام، لكني لم ألاحظ شيئًا، خابت آمالي بتمثيل عيون الملاية، خلعت العباءة ثم أخذت أخلع ملابسي وتعريت تمامًا، ولم أرَ شيئًا في المرآة، بعدئذ

تذكرت كلام أمي، فجسدي بات يرتجف خوفًا، أمي كانت دومًا تمنعني من المرآة في الليل وتقول: "بالليل لا تنظرين إلى المرآة، إنها مسكونة بالأجنة، وستصابين بالعمى"، ارتديت ملابسي بسرعة وخرجت من الغرفة المظلمة وأنا أتجنب الاصطدام بالأجنة.

جلستُ عند باب الغرفة المظلمة، مطأطأة الرأس أواسي نفسي على فشلي في تمثيل الملاية، وفكرت طالما جدتي لم تحب الملاية من الأفضل أن أبقى ثقيلة.

بعدئذ لم أهتم بتصنيف الأشياء بالثقيلة والخفيفة وقلما كنت أخرج من البيت، قد نبهتني جدتي: "قد كبر صدرك ولا تخرجي من البيت وحيدة بعد".

* * *

كنت أرافق أمي إلى النهر لإحضار الماء في كل مساء، وذات مرة لمحته من بعيد يخرج من الماء ويستلقي على الرمل، في الأيام اللاحقة كنت أتعمد أن أوسخ ملابسي، أو أهدر الماء لأرغم أمي على النُزول إلى النهر، كانت أمي تنشغل في الحديث مع

النساء الأخريات، وأنا أقترب منه في غفلة منها، طوال الوقت كان صامتًا يجول بعينيه بين الرمل والنهر، وفي كل مرة كنت أرى شيئًا جميلاً يُرسم برماله...

تارة أرى نورسًا يطير من يديه ويغطس في النهر، وتارة أشم عطر وردة تبرعم على أصابعه، عندما ينتهي من الرمل، سرعان ما يرمى بنفسه في النهر ويظل لمدة طويلة تحت الماء، وأظل أنا قلقة أحدق في الماء وأنتظر رجوعه، عندما أصبحُ على حافة الانهيار كان يخرج برأسه من الماء بالقرب مني، يمد يده مبتسمًا نحوي ويدعوني إلى السباحة، لكني كنت انسحب إلى بيتي والفرح والخجل يغمراني.

لم تدم سعادتي طويلاً وهم أتوا بأنابيب المياه إلى القرية وقضوا على فرص لقائنا، ذات يوم استغليت قيلولة أهلي في الظهيرة وذهبت أتلصص على الخارج من فتحة الباب، ثم تجرأت وفتحت الباب قليلاً، رأيت ليلى ترجع من النهر وحيدة وعندما رأتني ركضت نحوي مبتهجة، وظهرت لي رسالة من تحت أزيائها وقالت:

– كتب لي أنه يحبني.

* * *

لم أرَ ليلى بعد تلك الليلة، قالت لي أمي إن "عبيد الماء" بلع ليلى لكني سمعتهم يقولون إنها خفيفة جدًا وكان على ابن عمها خالد أن يغرقها قبل الفضيحة، حينئذ شعرت بأني بدأت استوعب مفهوم الثقيلة غير أني لم أعد أحب أن أكون ثقيلة وطفقتُ أعشق النهر الذي ضم صديقتي إلى جانب حبيبي وأخذت أتسلل إليه كل مساء بعيدًا عن عيون أهلي، كنت أختفي في زاوية خلف أشجار الغَرَب وأراقب حبيبي من بعيد، ذات مساء رأيته غطس في النهر ولم يخرج، انتظرته طويلاً على الضفة حتى غابت الشمس وبعد هنيهة ضوء كَشَّاف أنار الضفة كاملاً وسمعت رجال خلفي يصيحون:

– عبيد الماء! عبيد الماء!... اقتلوه.

ارتعدت فرائصي خوفًا ودخلت الماء أبحث عنه حتى لمحته يقترب مني مبتسمًا، وأحسستُ بأني خفيفة جدًا وأستطيع أن أهرب به إلى حيث ما أريد.

الفيضان

كان القلق يسود القرية منذ الليلة السابقة، إذ تراكمت الغيوم الداكنة طيلة الليل في صمت دون أن تُحدث رعدًا، وأصبح الأهالي على سماء حالكة أرعبتهم بقطفها لثمار المزارع قبل أن يحل موعد حصادهم... الأمطار المتأخرة في الربيع؛ دائمًا ما كانت تجلب التعاسة لفئة من الناس الذين لم يحصدوا مزارعهم بعد، وفي نفس الوقت تمطر الرحمة على أراضي الآخرين الذين حصدوا القمح وحرثوا الأراضي وينتظرون الأمطار للبدء بالزراعة الصيفية... رغم الخسائر التي كانت تخلفها الأمطار الربيعية إلا أن أهل القرية أصبحوا متأقلمين مع هذه الظروف الجوية التي كانت تلعب على وتر أرزاقهم وهم كانوا على إيمان بأن القَدَر يدور، تارة لهم وتارة عليهم.

في تلك الليلة، القلق لم يكن يقتصر على المزارع والأرزاق، كان هناك أمر غامض أسهر أهل القرية في حيرة وقلق، وهو

ارتفاع منسوب المياه في نهر دز إلى مستوى عال، في حين الغيوم الداكنة لم تزل منكبة على وجهها في السماء بلا مطر كما لم يسمعوا خبرًا عن هطول أمطار في أعالي النهر.

لم يمضِ شهر على العواصف الهوجاء التي ضربت القرية وكسرت الأشجار وبعثرت الأوراق وتماطلت مع السنابل، تلتها أمطار غزيرة هطلت على القرية لساعات، في إثرها المياه والوحول أغرقت ساحات البيوت، والطرق والمزارع؛ آنذاك لم يفض النهر وحتى لم يُسْق ظمأه، ناهيك أن يكون على حافة الانهيار... فظلت الناس تتساءل باستغراب: "لكن الآن! في غياب الأمطار من أين يأتي الفيضان؟".

لم يعد وميض نجمة يصل إلى الأرض ولا تلويحة قمر تفك شفرة من الظلام، وانقطعت الكهرباء لتزيد الطِّين بَلَّة.

أشعلت أم سبهان بقايا شمعة كانت ملقاة في النافذة منذ شهور، وجلست قربها وهي تفكر بالقرحة التي تواجه موت ابنها وحيدة، لم تملك شمعة أخرى تضيء الحظيرة حيث جاموستها

الوحيدة، القرحة، تدور حول شفجها وتحاول إرضاعه عله يُشفى من ذلك الداء الغريب.

إنه لم يبرح مكانه منذ ولادته قبل يوم، والوجع كان يعصر ضرع القرحة الممتلئ بالحليب بشدة، خوارها الشجي مَلأَ البيت لكن الوجع الكبير كان يؤلم قلبها حيث غريزتها الأمومية أخبرتها بأن شفجها لن يكون بخير... انحنت نحوه ولعقت أطراف وجه، لكنها لم تسمع له أي صوت سوى تأوهات خفيفة، ولم يتفاعل معها بحركة، منذ ولادته لم يرضع ولم يستطع النهوض.

أم سبهان ساعدت القرحة لتضع حملها، ثم أمسكت بالشفج ووضعته على ضرع أمه، لكنه لم يستطع الرضاعة وظل بين يديها يقلب بعينيه، ولم تقدر على المواصلة وسرعان ما خنقتها العبرات، تركت الشفج وهرعت إلى زاويتها المعتادة في الحظيرة غطت وجهها بشالها الأسود ووضعت رأسها على ركبتيها وجسدها بات يهتز في صمت كما تفعل يوميًا ولم تواسِها سوى

جاموستها، القرحة، التي كانت ترمقها بعيون غارقة في الدموع.

توافد الرجال إلى الشاطئ ليلاً وأضاءوا الكشّاف على النهر، وفعلاً مستوى الماء كان مرتفعًا وقد غمر كل شرائع النهر، في الظلام لم يتمكنوا من تحديد حالة النهر، إذ كان في حالة مستقرة أم يتجه نحو الفيضان؟ ارتفع صوت بعضهم داعيًا الناس لإجلاء القرية خشية أن تفاجئهم الفيضانات في الساعات الباقية من الليل، في المقابل ظل بعض الرجال متفائلين يستندون إلى أخبار التلفزيون الحكومي وبأنه لم يحذرهم ولم يطلب من الأهالي إخلاء القرية.

إن فيضان النهر لم يحدث منذ أكثر من أربعين عام، وبالعكس عامًا بعد عام رقعة الجفاف كانت تتسع، الجميع كانوا مستغربين المنظر وأخذوا يتساءلون: "هذا النهر الظمآن، الذي مزق صدره الجفافُ، كيف رجع بين ليلة وضحاها إلى زمنه القديم حيث كانت تمرح في صدره البواخر، فضلاً عن هذا، امتلأ بالمياه إلى درجة بات يهددنا بالغرق".

رجل عجوز تذوق ماء النهر وأفزعه الطعم وأدار وجهه نحو الناس المحتشدين قائلاً:

– إنها ليست مياه الأمطار، لها طعم غريب وتنطلق المياه إلى مصب مجهول بفوضوية تامة، إنها مياه عمياء لم تعرف كيف تجري في الأنهار، ربما هذه مياه الأنهر القديمة التي سُجنت خلف السدود، والآن هربت من السجون لكنها لا تعرف العناوين الجديدة، وتبحث عن طرقها القديمة، ولأنها لم ترَ سوى الأبنية وتمدد الجفاف في مجراها، أصيبت بالجنون والفوضى.

شاب في العشرينات دخل النهر حتى غطى الماء ركبتيه ثم شرب حفنة من الماء ونادَى الرجل العجوز:

– يا عمي! هذه مياه مالحة، إنها البحار ثارت علينا! لم نستطع في الظلام أن نحدد جهة الماء، لكنها بالتأكيد تغيرت وأصبحت تجري من الجنوب إلى الشمال، سيغرقنا البحر في الساعات القادمة.

شاب آخر، كان ملثمًا بكوفية حمراء سخر منه وقال:

– يا أخي! فتحوا السدود ليغرقونا، متى تعلمون! إنهم يطمعون في قرانا.

الدهشة تسربت إلى الأرواح واصفرت الوجوه، ظل الرجال واقفين في حيرة من أمرهم يحملون مساحي زراعية، وأكياس رمل، ومجراهم اليدوية، ولا يعرفون هل ينتظرون الصبح ليروا حقيقة المياه أم يسارعون في صنع سدود يدوية لتأجيل الغرق؟.

في شريعة بعيدة عن الرجال، أم سبهان تذوقت من ماء النهر وطاب لها فشربت كثيرًا وهي تهمس في نفسها: "كأني أعرف طعمه"، شاهدها بعض الأطفال المشاغبين تخرج من الشط ورموها بالصخر كعادتهم وهم يصيحون:

– اضربوها... اضربوها... هذه المجنونة ستضحك كما فعلت في موت ابنها قبل أعوام.

* * *

استغرق الأطفال في النوم بسرعة على أمل يوم جميل، وظلَّ الرجال مستيقظين يحرسون القرية من غارة النهر حتى الفجر،

والنساء سهرت الليل تحرس أطفالها من الكوابيس ورجالها من النوم.

القرحة سهرت الليل تدور حول شفجها الصغير الذي لم يرفع رأسه بعد، كما كانت تبحث بعينيها القلقتين عن أم سبهان التي اكتفت بإحضار طست معدني مملوء بالماء ووضعته في الحظيرة ما زاد القرحة عطشًا وقلقًا، حاولت أن تدفع شفجها إلى الطست لينعشه الماء، غير أن رقبته انحنت ولم تعدل بعد، ربضت جانبه القرحة وقربت وجهها من وجهه المنحني على صدره ومدت لسانها تلعق أطراف وجه، ثم حاولت أن تحط حلمات ضرعها في ثغره المفتوح لا إراديًا، لكن الشفج الصغير تزحزح وانبطح على الأرض.

* * *

صوت الطلقات النارية في الفجر الباكر أفزع الجميع وخرج الناس من بيوتهم مرتبكين، سمعوا الرجال الحراس يصرخون:

"السيول! السيول قادمة!"، وما لبث أن ركض كل شخص في اتجاه مختلف لينقذ أهله وممتلكاته.

دلفت أم سبهان الغرفة الوحيدة في بيتها وهي تضرب رأسها بكف يدها وجمعت أغراضها وممتلكاتها في حقيبتين قماشيتين خيطتهما بيدها قبل أيام، جمعت الصحون والأطباق في سلة الأواني ومن ثم في حركة سريعة طوت البساط بما فيه من أغراض نومها، لم تملك سوى بطانيتين صوفيتين حاكتهما أمها قبل ثلاثة عقود، ولحاف رث تحول إلى عدة كومات قطن، وثلاث مخدات عملتها هي من ريش الدجاج، ثم ثبتت لفة الأغراض بحبال الغسيل ووضعتها في باب بيتها لتنقذها من الغرق... القرحة ثروتها الوحيدة التي كانت منكبة على شفجها في الحظيرة، ولا تعرف أم سبهان كيف تنقذها وتنقذ مستقبلها من الغرق.

هرب ذوو السيارات بممتلكاتهم وأهلهم ولم يبقَ في القرية سوى عدة بيوت ومنهم أم سبهان، خرجت من البيت بحثًا عن مساعدة ورجعت مع سائق شاحنة شراء الحليب وهو يصيح:

"بسرعة! بسرعة! المياه أغرقت الدروب!" وضع أغراضها في الشاحنة ثم اقترب منها وخفض صوته قائلاً: "وأنتِ أخيرًا سمحتِ لي بدخول بيتك لكن للرحيل"، لم تعر اهتمامًا لتلميحاته المحرجة وتوجهت نحو القرحة وطلبت منه أن يقرّب الشاحنة من الحظيرة.

حاولت أن تقود القرحة خلفها، لكنها أعرضت عنها ورجعت تحتضن شفجها الميت منذ ساعات، صاح السائق:

– أسرعي! سنغرق جميعًا.

ثم توجه مسرعًا إلى القرحة واختطف شفجها وألقى به خلف الحظيرة وهو يتمتم: "طالما تراه لن تتحرك من مكانها"، نهضت القرحة من مكانها غاضبة وبدأت ترفع رجليها وتضربهما على الأرض بقوة وتنطح كل ما حولها بقرونها في محاولة لفك رباط حبلها واللحاق بشفجها.

تلمظت أم سبهان قطرات الدموع المنسابة على شفتيها لأول مرة بعد وفاة سبهان وهي تردد: "قد جنّت على شفجها"، خرج السائق لهنيهة ثم عاد مع رجلين من أهالي القرية أمسكوا

بالقرحة بقوة ودفعوها حتى دخلت الشاحنة ومن ثم ربطوها بأربعة حبال بالقضبان، وصعدت أم سبهان إلى جانبها وانطلقت الشاحنة.

خوار الجاموس غمر عيون أم سبهان بالدموع، حاولت القرحة أن تنهض لكن وقعت بها الحبال، ثم أدارت رأسها بجنون في كل الأنحاء تبحث عن شفجها الصغير، تصارعت مع الحبال لهنيهة ثم صمتت لثوان بعدئذ فجأة قلعت الحبال من قضبان الشاحنة بسرعة هائلة، وقوة سحرية ورمت بنفسها على الأرض.

الشاحنة خرجت من السير واصطدمت بشجرة وتوقفت، نزل السائق يصرخ في وجه أم سبهان: "لقد حطمتِ شاحنتي!"، نزلت أم سبهان دون أن تنبس بكلمة وراحت تقلب الجاموس التي لم تتحرك منذ أن رمت بنفسها من الشاحنة، ثم شقّت قطعة من عباءتها وضمدت جرح قدم القرحة بها وساعدتها كي تقوم، لحق بها السائق ودفع القرحة نحو الشاحنة لكنها أفلتت من قبضتهما ورجعت تعرج نحو البيت... صاح السائق:

– اصعدي! اتركيها تموت مع شفجها ألا ترين المياه كيف تتدفق نحونا؟

جثت أم سبهان على ركبتيها ودنت رأسها من الأرض وشربت بكفها من مياه الفيضان ما أعاد إليها السكينة، ثم أدارت وجهها نحو البيت وتبعت القرحة... صاح السائق:

– حقًا! أنتِ مجنونة، لم يكذب في حقك الناس...

ثم شغَّل شاحنته وابتعد بسرعة...

أخذت أم سبهان تخطو بصعوبة في الوحل حتى وصلت إلى القرحة الهائمة في البيت، ربطت القرحة بالرباط وتوجهت بسرعة خلف الحظيرة وأتت بالشفج الميت في حضنها، وصعدت به السلم ووضعته على السطح، القرحة لحت شفجها وأفلتت من رباطها وركضت نحو السلم وطفقت أم سبهان تدفعها وتساعدها لتحط قدميها على الدرج وتعاونت القرحة معها بذكاء خارق حتى بلغتا سطح البيت.

ألقت القرحة بنفسها على جسد شفجها الممدد على السطح، لعقت وجهه ووضعت ضرعها في ثغره المفتوح منذ ساعات، أغرقت الدموع عيون أم سبهان واقتربت من القرحة وألقت برأسها المثقل بالأحزان على جسمها، وطفقت تنحب بصوت عال لأول مرة بعد موت سبهان، فاضت دموعها وغسلت الغبار عن وجهها المتعب، وفيضان النهر بدأ ينسحب رويدًا رويدًا.

القنغاء

تنهدتُ بضيق بعد أن قضيتُ نهارًا شاقًا ومتعبًا في تمثيل الفرح والمرح للأطفال، ثم استدرتُ نحو النافذة الصغيرة المطلة على الحديقة الخلفية للبيت والجدار الإسمنتي الذي يحيط بها، وطفح على سطح ذاكرتي كابوس ذلك الهجوم المريب الذي أَفرم ليالي بالأرق وخلَّف صداعًا غريبًا ظلَّ يركض في رأسي على وقع حركة تلك الأقدام الطويلة والمخيفة التي وطئت بيوت أهلي بحثًا عن الذهب الأسود والأصفر، صدى الرصاص لم يزل يتردد في أذني، إنه فرَّق شمل أحبابي من على الأغصان كتساقط النبق الهشيش إثر حجارة صبي مشاغب يرمى الشجرة لأن قامته الصغيرة لم تبلغ بعد حد الثمار الناضجة.

رغم مرور أعوام على أحداث تلك الفترة الصعبة، صوت الأشجار ظلَّ يئنُّ في مسمعي منذ أن لامستْ جذوعها مناشير

الغزاة الكهربائية وهم يفترسون الغابات ويفرشون الأرض بالفحم، ويغلقون منافذ الهواء والغناء.

عبّقت الذكريات القديمة في القفص وظفرت لي الحنين كحبل نجاة أتسلقه لأخرج من فاه آلام ذلك الحدث المريب، وأنطلقُ في آفاق الأمل والحلم الواسعة بعيدًا عن قعور أيام السجن، سقيتُ ظمأي بندى الذكريات في السهول الخضراء التي كانت تتحوّل إلى بحيرات جميلة في الشتاء نشرب منها الماء ونواصل رحلاتنا السعيدة في البر والسماء والبراري الواسعة، حيث كانت تتفسّح مساحات أصواتنا الدافئة في أحضانها، وتساءلت في نفسي كيف وصلنا إلى هنا؟

أسندتُ ظهري إلى القضبان كي تنفضني صلابة الحديد من رمال اليأس، باردة جدًا كانت القضبان؛ مع ذلك كانت الداعمة لي في تلك الليلة الموحشة وأنا أحتضن طيفه الساكن في خيالي والدموع تنهمر على خدي.

لم تمر ثوان معدودة حتى رماني الزمن من حضنه الدافئ إلى وحدتي المفُزِعة في غيابه، وأطبقت جفوني ليأخذني الغياب عبر

مناجاتي إليه: "يا ليتك سمير في هذه الليلة الأخيرة كنتَ برفقتي، أفتقدك كثيرًا، أشتاق إليك ولغنائك العذب الذي كان يحلق بى إلى أعلى آفاق النشوة والسرور، كم افتقدُ تلك النظرة المفعمة بالحب، الساخرة منى حيث كنتُ أحاول تقليد صوتك الساحر بضوضاء لا تُشبه الغناء كثيرًا، ومن ثم كنتُ ألقي بنفسي خائبة في حضنك الدافئ وأنتَ تهمس: "لا تعبثي بالطبيعة وإلا ستغضب وتحوّلك إلى صخرة بكماء لا تقدر أن تغازلني طوال الوقت"، وبعدها كنا نضحك بملء الفم من محاولتي البائسة للغناء، وحبي الجيَّاش لك، ونطير في السماء منشدين الأغاني، ونحط في البر المناسب لنعد عشنا الدافئ، لولا أولئك الطغاة لرزقنا الآن بأفراخ كما باقي أبناء جلدتنا في أنحاء العالم، لكن الرياح أحيانًا تحطِّم السفن في السواحل قبل أن تنطلق نحو البحار.

* * *

النسيم البارد شقَّ طريقه من النافذة إلى قفصي وداعب أوتار حنجرتي بهدوء كأنه كان يحملني على تموجاته الهادئة في الآفاق،

حيث كانت تتراءى لي السماء ترقص على وقع سيمفونية الحزن والصمود التي ظلت تصدح في أعماق حنجرتي منذ سنين، سيمفونية بدائية لم تستند إلى أي علم أو سلم موسيقي حديث، لم تنتمِ إلى المدارس الموسيقية الراقية لدى باقي القنابر الحرائر في أنحاء العالم؛ بل كانت مملوءة بالحزن والحنين إلى سماء لم تبقَ لي حصة منها سوى مشهد متواضع عبر النافذة، وظل شجرة قصيرة الأغصان أصبحت مِشجَب الصياد ومرمى لتدريب أبنائه على الرماية، مع هذا سيمفونيتي ظلت رمزًا للهوية القنبرية وليست صدى صوت الصياد أو أنغام ببغاواته كما تردد "القنغاوات" في مدينتي.

منذ أسبوع كنت أتمرن على تلحين أغنيتي المفضلة، الأغنية المفعمة بنشوة التحدي والحياة التي كانت تحوّل حزني إلى جناح يحمل جسدي المتعَب إلى ما خلف القضبان وعلى بقايا شجرتي الحبيبة، الأغنية التي تعدها أغلب القنابر نشيدهن الوطني لكن مُنِع عزفها بسبب احتواءها على مضامين تشجع القنابر على الغناء والتحليق بين الأرض والسماء.

كنت أتأهَّب لميلادي وثوريتي في حفل عيد ميلاد "سيا"، ابن الصياد، حيث كان من المقرر أن أحضر برفقة باقي القنابر للاحتفال بعيد بميلاده، وفي الواقع الاحتفال بنجاح الصياد و"سيا" على تحويلنا من قنابر بريات إلى "قنغاوات" أليفات.

لم يسبق لي التعرف عن قرب إلى باقي القنابر في البيوت المجاورة إلا في المناسبات الرسمية؛ مثل عيد ميلاد أحد أعضاء الأسرة الصيادية أو بداية السنة الجديدة وما شابه ذلك، وعندها كان يجمعنا المدير الثقافي لإدارة المهرجانات في ساحة مخصصة "للقنغاوات" لنردد اسم الصياد وننشد الشعر حبًا وولاءً له ولأسرته.

بعض القنابر سبق أن خالفت أو نست القانون وقامت بتغريد أغاني خالدة من التراث القنبري، لكن كما يقال انتهى أمرها على مائدة طعام الصياد وأصدقائه في سهراتهم العشوائية، ومن ضمنها كان سمير قبري الطيب، الذي دفع ثمن طيبه وإيمانه غاليًا، صدى كلماته مازال يتردد في أذني وهو يناديني:

– هل مازلتِ مصرَّة على صمتك؟ إلى متى تندبين الماضي وتصومين عن الحياة؟ هل تظنين أنك ترعبينه؟ لا يا حبيبتي! سيبقى سيدًا لنا ولأهل المدينة، والآخرون يغردون ولاءً له، لكنك أنتِ من ستنسين آمالك! صمتك ليس حصنًا يحميك من عملية المسخ التي يقوم بها الصياد، بل هو بئر التهميش الذي يبلعك كل يوم أكثر حتى يقضي عليك ميتة في قعره بلا أثر.

لم أره بعد حتى عيد رأس السنة وحينها اقترب لي ولم يفه بكلمة، عيناه كانتا تمطران حزنًا عميقًا، ثقله أوجع قلبي فاقتربت منه بحذر وفجأة تلامست مناقيرنا ما أنفد صبري ورميت نفسي في أحضانه، كأني كنتُ أسكبُ كل أغاني المسجونة في أعماق روحه، وأبحثُ في عيونه عن كل ذلك العمر الأخضر الذي حلمنا به معًا عندما كنا نغنى ونحلق أحرارًا في السماء حتى حل ذلك اليوم الأسود ووقعنا في شباك الصياد، والتحقنا بجمع غفير من القنابر الأخريات في بيوت أقرباء الصياد.

في الشهور الأولى حيث عشنا معًا في أقفاص قريبة من بعض في صالة منْزل الصياد، كان يغمرني الشغف بالحياة، والإيمان يوقد فيّ جمرة النضال، وظللت صامدة أمام كل التعذيب والتطميع، معتزة بذاتي القنبري وقدرته على تخطي الأزمات، لكن بعد انتقال سمير إلى منْزل "تى تى" بنت الصياد، الوحدة بدأت تنخر في إيماني، وتسربت الشكوك إلى عروقي كالسم القاتل لولا التعذيب الذي كان ينتشلني من غياهب الخوف لأكلتني أفاعي الترديد في دهاليز وحدتي.

قبل رحيله مع "تي تي" كان يقول لي سمير إنها تحب اللعب والمرح معه كثيرًا ويضيف متحمسًا بأنهما أصدقاء لأجل الحياة وحب الحياة، كالمياه المتدفقة من الأعالي تدهس كل الخلافات في مسيرها نحو البحر، وحين سمعته في الأيام التالية كيف كان يلفظ اسمه في إحدى الاحتفالات، استوعبت ما عمق المياه الجارفة التي قضت عليه، إنه قد أزال كل الحروف القنبرية الصعبة من لقبه ليبقى اسمه سليمًا وسهلاً في لغة "تي تي".

وكثيرًا ما كان يفلسف لي، ما كنت أكرهه فيه، ليفسر انجذابه نحو "تي تي":

– ما ذنب تي تي بما حدث تاريخيًا لنا؟ هل تريدين أن نعاقبها على جريمة أبيها؟ هي تبحث عن السلام والحياة المدنية معنا، نحن متشابهون في وجودنا على هذا الكون رغم اختلافنا في طرق حياتنا، كلنا نبحث عن السعادة والهناء في الحياة وهذا أفضل وأعلى شأنًا من الانتماء القنبري أو الصيادي، علينا أن نتحرر من دوائر الانتماء الضيقة، وننطلق نحو بناء هوية عالمية، العالم أصبح قرية صغيرة وأنتِ مازلت تبحثين عن الحدود بيننا وبين الصياد؟.

وعادة ما كان فمه يُغلق ويُفتح بسرعة لدقائق مديدة، بينما تأخذني الظنون والمخاوف بعيدًا عن تصوراته البسيطة إلى المستقبل الغامض في ضبابية كلماته، حتى تلفحني الكلمات الثقيلة غير المتجانسة وأعود إليه، وغالبًا ما كنتُ أعثر عليه تائهًا بين الكلمات دون أن يخرج بجملة مفهومة، وحينئذ كنتُ أشم رائحة الموت من كلامه وهو يتكلم عن تشابهه مع "تي تي"

في الوجود ويتجاهل عجزه عن إقامة الوجود الكريم بسبب تطاولها على وجوده.

* * *

أرهقني التأرجح بين الذات والتمثيل على طول النهار، وفي منتصف الليل بسطتُ جناحي على الأرض لكي أرتاح من عبء التمثيل الثقيل والمكرر، منذ الصباح وأنا كنت أنقر على القضبان، ما أتقنه من فنون، لأخلق أجواء الفرح والمرح للصغار ويعيش كل البيت من الأطفال والصياد وأنا بسلام، كنت أعرف أن منقاري ضعيف جدًا ليكسر الحديد، ولابد لحريتي أن تعبرَ من الأبواب؛ لكن لولا اللعبة التي كنت أقدمها لأطفال الصياد لأكلني الأخير بريشي منذ زمن بعيد.

أحيانًا كان يدفعني الملل إلى التماهي مع تمثيلي، وعندما كانت تتراءى لي أسراب الطيور في شاشة التلفاز تطير قريبًا مني كنتُ ابدأ بالنقر على قضبان القفص بجدية وأفرد جناحي وأرفع رجلي عن أرض القفص وأصدح في تناغم مع رقص أجنحة

أصدقائي المهاجرين حتى تطفأ الشاشة وأتقرفص في زاوية القفص خائبة وباكية، لكن في تلك الليلة كل شيء كان يوحي بميلاد قريب، وعدت إلى رشدي قبل أن تُطفأ الشاشة، عاتبة على نفسي: "ما هذه البلاهة؟ هل بدأت أخلط بين النافذة وشاشة التلفاز؟ هل بدأت استمتع بكوني مهرّجة لهؤلاء الأطفال؟ يا ترى هل انتابني الجنون؟ وذلك الجرح القديم بدأ يعبث بعقلي؟"، ثم تمددت في قفصي الذي بدا لي كقبر ضيق لا يوجد هواء كاف داخله لأتنفس، والقضبان أصبحت كالأفاعي تنتظر نومي لتسرطني، التقطتُ أنفاسي بصعوبة وأنا أردد: "الغد سيكون آخر يوم تشرق الشمس علي في القفص".

حمدتُ ربي أني لم أولد في القفص ومازلتُ أتذكر طعم الحياة في الطبيعة، غير أنني بدأت أقلق على أفراخ القنابر، يا ترى ماذا سيكون موقفهم مني غدًا؟

الجيل الثاني من القنابر ولدوا في الأقفاص ولم يعيشوا حياتهم الطبيعية، كانوا عُرضة لنظرية الصياد بأنهم ينتسبون إلى فصيلة خاصة تسمى" قنغاء" من تشبه القنبرة ظاهريًا لكنها تكره البر،

وتخشى الشجر وتعشش في الأقفاص، ولا تجيد الطيران سوى الوثب إلى الأكتاف، ولا تغني باللغة القنبرية بل تردد كالببغاء ما يُقرأ عليها من أشعار في مدح الصياد بلغته، في كثير من الحالات الغريزة القنبرية طقت على هذه التعاليم المُفسدة في الأقفاص لكن الخوف والقفص حالا بينها وبين تحقيق الذات القنبري، وظلت الطبيعة أمنية مستحيلة ومكبوتة في أعماق القنابر.

* * *

وأنا متمددة على أرض القفص تذكرتُ سمير وحاولتُ أن أتصوره كيف عاش ليلته الأخيرة؟، في آخر لقاء جمعنا، شممتُ رائحة دمه المهدد، نصحني بأن أراقب أحلامي حتى لا تعكِّر صَفو أيامي ولا تجلب لي المتاعب، جسده كان ممتلئًا وقال بأسى:

– حتى الوثب إلى الكنبات أصبح أمرًا شاقًا لي، وقد لاحظت تغيير نظرات مدير التعليم تجاهي في الفترة الأخيرة وبدأ يراقبني ويطعمني أكثر، وشطب كثير من المواد الدراسي التي

بزعمه تتعبني، وتسمّم أفكار أفراخ القنابر حول الغناء والسماء".

* * *

دخل الصياد إلى صالة البيت بعد منتصف الليل، يبدو هو الآخر أسهره القلق أو السمر حتى تلك الساعة، ثم اقترب من قفصي وأدار عينيه المفتوحتين على اتساعهما بين أنحاء جسدي، نظراته الجائعة كانت تلتهمني بشهوة، مد يديه داخل القفص وأمسكني من رأسي وأخرجني من القفص ثم مسح على ظهري وتلمس أسفل بطني، وخاطب ابنه الذي كان يتبعه:

- ما تزال ضعيفة، نتريث حتى عيد ميلاد جدنا، والقنغاوات السمينة لها نكهة خاصة في الليالي القارسة.

ثم تركني في الهواء وسقطتُ على سطح القفص دون رغبة مني بفرد جناحي، أمسكني ثانية بيده وضربني ضربة خفيفة على ظهري، ثم تلمَّظ ووضعني في مكاني وأغلق الباب، وابتعد برفقة ابنه عن قفصي.

اضطربتُ لحظة، لم يدر في خلدي أن هناك من يطمع في لحم ساقي التي لا تغني ولا تسمن من جوع، وتساءلت لِمَ أصبحتُ ضمن قائمة الإعدام؟ بعد كل ذلك المرح والسلام الذي خلقته للعائلة الصيادية، والتمثيل الذي حرق فؤادي، كان الأمر غريبًا لي، لم أعر الموضوع اهتمامًا أكثر لأني فعلاً كنتُ أكاد أموت من شدة ضيقي في القفص.

صديقتي السنونوة كانت تتنصت على الصياد ورفرفت بجناحيها أمام النافذة بعد ابتعاده، ثم اقتربتْ من الزجاج وبصوت خافق نادتني:

– سمعته يخطط لقتلك، اسمك ضمن القائمة لمائدة حفلة الميلاد، نحن على وشك السفر، الحياة جميلة تستحق الكفاح، ليتك تأتين معنا.

ابتسمت وأرسلت قبلة في الهواء لها، هامسة:

– مع السلامة يا صديقتي، ارحلي والسفر موطنك، من أجل الحياة الجميلة، سأصمد وأنشدها حتى النهاية.

بعدها انتابني حزن عميق، واشرأبت عنقي إلى الأعلى بحثًا عن هواء أكثر ونزلت بقسط من الأمل، ثم أرخيت عضلاتي وتمددت على الأرض لأنام قليلاً، لكن حالما أغمضت عيني انطلقت صورة سمير لتسبح في دموعي وأنا أتصوره يلتقط آخر أنفاسه تحت سكينة الجلاد، وأتذكر تصوراته الجميلة عن علاقته بتي تي، ليته يعلم ما حل به وكيف تي تي أكلت لحمه في النهاية باشتهاء، وأن المياه المتدفقة من عيون الحياة لم تستطع أن تغسل سادية قلوب العائلة الصيادية وتردعهم عن قتله، وبعض الاختلافات تبلع كل البحار وترمي بنا أمنيات جافة، بعيدًا عن الواقع.

لم أنم قط في تلك الليلة سوى لحظات حلم؛ مفعمة بالحب والحماس كانت تطير بي إلى السماء كلما أغمضت عيني، رغم هذا؛ في الصباح كنتُ في أهبِّ الاستعداد لحضور الحفل.

قبل أن تشرق الشمس بكامل صورتها، اجتمعت العائلة في الصالة للإفطار، تعد هذه الاحتفالات إلى جانب مراسم التأبين، المناسبات الوحيدة التي تجمعهم على مائدة واحدة، في باقي

الأيام الأب يفلسف في مكتبه وحيدًا ويصدر قوانين لا أحد يعرها اهتمامًا، والشباب منهمكون في طيشهم، والأم تقضي يومها في واجباتها المنْزلية، كل واحد يأكل طعامه في غرفته وفي موعده.

ذلك الصباح كان صباحًا رمزيًا لهم، وعلى غير عادتهم نهضوا من النوم مبكرًا واجتمعوا في صالة البيت، بعد تناول الفطور توجهوا إلى الميدان المركزي في المدينة لافتتاح فعاليات المهرجان السنوي لوحدة البلاد المصادف لتاريخ ميلاد "سيا".

حضرتُ الحفل على كتف سيا ابن الصياد، ورأيت جمعًا غفيرًا من القنابر يهرولن بين أقدام أسيادهن، ويقفزن على أكتافهم بإشارة منهم، ويرددن ما يقرأ عليهن من كلمات، ثم يحصلن على قليل وحبات ذرة وحشرات ميتة للأكل، فيمسكن أجنحة أطفالهن بقوة لمنعهم عن غريزة الطيران.

بعد انتهاء مراسيم أهل وأصدقاء سيا، أتى دور إلقاء التحية وتسنّم المنصة الصياد واستهل كلامه بإلقاء التحية إلى جماهير القنغاء وواصل:

– أود أن أذكر اسم مدرس من أهل "قنغاء"، من قدّم الكثير في سبيل تعليم وتثقيف أطفالنا؛ لكنه سقط ضحية لمؤامرة أجنبية تحاول تمزيق وحدتنا من خلال التأكيد على نقاط اختلافاتنا الضئيلة، هو "القنغاء" سمير، من كان مدرسًا ناجحًا ومتعهدًا لكن مع الأسف لم يصمد أمام إغراءات أعدائنا، وتلاعب به هوس شيطاني وحثّه على أعمال منافية للذات القنغائي، ووحدة ومصلحة البلاد، إنه حلّق من نافذة عالية، مسحورًا بتلك الأغاني والأصوات الدخيلة والغريبة، وسقط على الأرض قتيلاً، يسكنه الباري فسيح جناته وليكون قدوة في نجابته وعبرة في أخطائه لأهله وأصدقائه وشعب القنغاء.

"سمير ليس قنغاء، سمير لم ولن يكون قنغاء، سمير قنبرة ولم يسقط على الأرض يومًا، ودومًا كان يغني والغناء كيانه وهويته، والسماء بيته ليحلق في آفاقه، وأنت يا صياد من قتلت سمير، قنبري الراحل وليس قنغاء"، طفقت أهمس لنفسي بحماس لأحافظ على تركيزي ومعنوياتي.

رفعت رأسي إلى السماء وثبَّتُ نظرتي على آفاقها الملونة حتى ظهر سمير يبتسم ويدعوني إلى اللقاء مُشيرًا إلى حنجرته، فهمت ما يقصده: "أطلقي عنان أغانيك السجينة والعذبة، قولي لأفراخنا بأننا لسنا قنغاء نحن قنابر نسكن البراري والأشجار، ونحلِّق عاليًا، ونغنّي في أعلى الآفاق".

فردت جناحي على كتف سيا، ثم وثبت إلى رأس الصياد وتزحلقت ببطء متعمدة على عنقه حتى نلتُ كتفه وشعرت بقوة قاتلة تحب أن تقلع عيون الصياد وتقطع يديه القاتلة، لكني كنت أحمل على عاتقي قضية فلم أدنسها بشهوة الانتقام، ارتفع عنقي إلى السماء وأطربتني نظرات سمير وفتحتُ أجنحتي للرقص في السماء، بدأتُ أتذوق الحياة ورمقت جناحي بفخر واعتزاز كأني كنت أراهما للمرة الأولى، حلقتْ نظرتي إلى الأفق حيث أنامل الشمس كانت تدغدغ سحابة منفردة وتتمرغ الغيمة فرحًا في حضن السماء حتى انزلقت قطرات المطر الراقصة على أشعة الشمس وغازلت عيوني في نهاية رحلتها، فانبثق في أغواري قرار صارم للحياة وأجنحتي سبقت القرار فراحت تحلق في السماء.

تابعتني مئات القنابر الحاضرات في الحفل بعيون مندهشة ومعتزة بأني أنتمي إلى فصيلتهن وأنا أغني:

– أنا قنبرة لست قنغاء، أنا قنبرة أغني وأحلق في السماء.

رأيت الشغف يغمر أفراخ القنابر الذين وُلدوا في الأقفاص لكن أعمارهم لم تكن طويلة لتطوِّق أرواحَهم الأيامُ الحديدية، كما فعلت مع أهلهم، ولم تزل الغريزة القنبرية للغناء والسماء تتدفق في عروقهم، وطفقوا يرددون "أنا قنبرة لست قنغاء".

أخذ الارتباك يعبث بالصياد وجرى يبحث عن بندقيته ليوقفني، سيا حاول منعه خوفًا من إثارة غضب وكراهية باقي القنابر غير أن حقد وغضب الصياد كانا أكثر من أن يصبر على قتلي، وجه البندقية نحوي وأطلق الرصاص بكثافة، رصاصة أصابت فخذي وبدأ النَزيف، لكني تابعت تحليقي بصعوبة حتى احتضنتني السماء وأنا أردد لنفسي: "علي أن أطيرَ إلى أعلى الآفاق وأنا أغني، قبل السقوط شهيدة على يد الصياد، حتى تؤمن القنابر السجينات أن الغناء جزء لا يتجزأ من الذات القنبري، والسماء هي ساحتهن للعب والطيران، والبر هو

منْزلهن للعيش، وأفضح مؤامرة الصياد لمسخنا وجريمة قتل سمير، علي أن أحيا زمني ولو للحظة في آفاق الحرية قبل أن أموت".

سيا اعتلى المنصة وأرسل التحية إلى آلاف "القنغاء" الأوفياء وندَّد بالأعمال الإرهابية التي بزعمه قمتُ بها بالتعاون مع السنونوات الأجنبيات، ودعا جمهور "القنغاء" إلى الانتقال إلى مرحلة جديدة من العلاقات مع عائلة الصياد، وتابع:

– كان بودنا أن نعلن عن برامجنا الثقافية في بداية السنة الجديدة لكن بما أن هذه الأعمال الإرهابية البائسة تحاول أن ترسل صورة غير واقعية ومزورة عن حياة قنغاواتنا إلى العالم، استمرارًا لنشاطاتنا السابقة ودعمًا للنشاطات السلمية والثقافية؛ نعلن عن بدء دورات لتعليم الغناء والطيران الشرعي لأفراخ القنغاوات والبالغين الراغبين في التعلم، والتسجيل سيبدأ بعد ساعات في الضلع الجنوبي من القاعة وبأسعار رخيصة جدًا.

توجَّه جمعٌ غفيرٌ من القنابر للمعاهد للتسجيل في دورات الغناء والطيران؛ شاكرين كرم وسعة صدر الأسرة الصيادية لافتتاح هذه الدورات والاهتمام بتراثهم القنبري وواقعهم القنغاوي، كما جمع آخر ظلَّ يلوح بيده لي بعيدًا عن عيون الصياد.

منذ ذلك الحين ظللت عالقة في السماء، جسدي لم يستطع مواصلة الطيران قد نال منه الرصاص ودُفِن في موقع مجهول، تارة يطير بي الأمل وانتظر المتخرجين من هذه الدورات ليلحقوا بي في السماء، وتارة ألتقي برفاق من مختلف الأزمنة صرت على نهجهم أو صاروا على نهجي ونغني... وأحيانًا نادرة أبحث عن قضبان لأستند إليها وأنام.

مهرجان النباح في غابة أخرى

في قلب الغابة، شاهدتْ الأُسُود الدخان يتصاعد في الهواء، وشمت رائحة اللحم المشوي طاغية على روائح الحيوانات وظلت تتساءل باستغراب ما الذي يجري هنا؟ ثم تفرقت في الغابة بحثًا عن مصدر الدخان.

بعد تحديد المصدر، اجتمعت الأسود لتشن حملة عليه وتفترس هذا الحيوان الجسور الذي لم يحترم حدودهم، غير أنهم لم يمشوا بضعة أمتار حتى أوقفهم زئير الأسد النائب، اقترب لهم وبصوت هادئ خاطبهم:

– لا تتسرعوا في الرد، لم يسبق لنا الصراع مع هذه الحيوانات، الملك على علم بهذا الحيوان الجسور، وأمرنا بالسكوت وعدم التصدي له حتى يدرس الأمر ويخبرنا في الوقت المناسب بالرد المناسب.

استغربت الأسود حديث الأسد النائب نقلاً عن الملك، لم يسبق لهم أن صبروا على عدوهم هكذا، بل كانوا يهجمون عليه سرعان ما يشعرون بالخطر، لكن احترامًا إلى قانون الغابة كظموا غيظهم وانتظروا قرار الملك.

مرَّتْ أسابيع ولم تستطع الأسود الصبر لمدة أكثر، فأدركوا أنهم محاصرون بعويل الشاحنات، وضوء الكشَّافات، ودوي الرصاص، ورائحة اللحم المشوي، فاتجهوا إلى الملك ونادوه بنبرة غاضبة:

– يا ملك الغابة! لا حيوان حتى الآن تجرَّأ على التطاول على حدودنا وخرج سالمًا من هنا! لِمَ هذا الحيوان الجديد هكذا يتوغل في أرضنا ونحن صامتون؟ هل نسيت ما فعلناه بالخنازير عندما شربت حفنة ماء من أنهارنا؟ أو كيف قلَّمنا أظافر الكلاب حتى تركت الوحش واختفت في البيوت؟ إذا بقينا صامتين هكذا، لن يمضي زمن طويل حتى ترن الإكسسوارات والقلادات في أعناقنا ونظل نلهث خلف هذا العدو ككلابه.

ظلَّ الملك العجوز صامتًا طيلة حديث الأسود الغاضبة ثم قال بصوتٍ يرتعش:

– لا أعرف مدى قدرة هذا العدو الجديد الذي لا يلبس مثلنا ولا يتكلم مثلنا ولا يحارب مثلنا، فقرَّرتُ أن أُعيِّن الأسد النائب يراقبهم من قرب لمعرفة قدراتهم وطموحاتهم في الغابة، وعليكم أن تقدِّموا له الصيد جاهزًا لنعفِه من مشقة الصيد والمطاردة.

منذ اليوم التالي بدأ الأسد النائب يتردد إلى قاعدة الجنود بخطى حذرة مع مغيب الشمس ويختفي هناك، يموِّه جسده بالحشائش ليراقب ما يفعله هذا العدو الجديد، وعندما كان يرى طريقة أكل الجنود ونشاطهم حول الموقد سرعان ما كان يشعر بالجوع فيرجع مسرعًا محملاً بالمعلومات إلى الملك ليخبره بما رأى ويأكل من وجباته الجاهزة.

في الأيام اللاحقة استأنس بوظيفته بما كانت تأتي به من راحة وتعفيه عن المطاردة، وأخذ يقضي معظم أوقاته هناك مختبئًا قرب الجنود في القاعدة العسكرية، ذات ليلة أثار انتباهه أحد الجنود

العائدين من الصيد، راقبه كيف رمى خنْزيرًا مقتولاً على الأرض، ومن ثم الكلاب سحبت الخنْزير إلى الجنود المجتمعين حول الموقد.

حمله الجنود فوق النار وثبَّتوه بعمودين حديديين وبعدما شُوي بنار متقدة؛ اجتمعوا حول الموقد بنهم والجندي الأعلى درجة انتزع فخذي الخنْزير المشوي وأرسلهما إلى القادة الذين كانوا يدخنون فوق الهضبة، هبَّ الجنود على ما تبقى من اللحم ولم يكونوا منتهيين من نصفه حين تلقوا أوامر بالوقوف، وبعدها توجه بعض منهم إلى النوم، والآخرون حملوا أسلحتهم واتجهوا مسرعين إلى مواقع الحراسة وتركوا اللحم للكلاب، والكلاب كذلك لم تأكل كثيرًا، وكأنها تلقت أوامر من الجنود، بعد هنيهة توقفت عن الأكل ورافقت أسيادها إلى مواقعهم.

لم يستطع الأسد النائب أن يقاوم رغبته في تذوّق ما كان تلتهمه الجنود والكلاب بشهية، فضلاً عن هذا إنه لم يأكل شيئًا منذ ساعات، فاقترب من بقايا الخنْزير المشوي على الموقد بحذر وباشر بأكله، فوجئ بطعمه الشهي وتساءل في نفسه: "لِمَ نحن

الأسود لم نفعل هذا من قبل؟"، ما انْفكَّ كل ليلة يراقب سهرات الجنود في القاعدة العسكرية ويأكل بقايا لحمهم المشوي، ولما يسأله الملك ما الجديد في خطة العدو يرد عليه: "ليس هناك شيء جديد، هم يسكنون في مواقعهم قلما يخرجون منها ولا يقتربون من حيوان في الغابة"، وبهذه الحيلة دحض احتمال مشاركة بقية الأسود في حصته من اللحم المشوي.

ذات ليلةٍ أحسَّ الأسد النائب بخطب ما في القاعدة العسكرية، رائحة الطعام لم تستقبله من بعيد، وبدا له كأن الجنود في حالة تأهب وإنهم يستعدون إلى رحلة أو هجوم ولا أحد يهتم بالأكل، انتظر كثيرًا وبات الجوع يقتله، وقد تأخر كثيرًا عن موعد رجوعه.

ضربة خفيفة على قفاه أنقذت ذهنه من الشرود واستدار بسرعة مرتبكًا؛ رأى جنديًا يبعد عنه أمتارًا وكان يحمل بين يديه ذبيحة مشوية وينظر إليه بحدة وابتسامة مصطنعة كشفت عن أسنانه الصغار، امتلأ فم الأسد النائب باللعاب وظل يقلب نظراته بين الجندي، هذا العدو الصغير الذي يراه لأول مرة من

قريب ووجبته المعتادة والشهية من اللحم المشوي، لم تطل حيرته في اختيار الفريسة والجندي رمى الذبيحة إلى الخلف ثم تقدم هو وحده نحو الأسد النائب، ما جعل قشعريرة غريبة تعتري الأسد وهو يقول في سره: "هذه بالتأكيد قشعريرة الجوع، كيف يخشى الأسد هذا الحيوان ذي الأسنان الصغيرة".

وقف الجندي قبالته وقال:

– تأخرنا عليك الليلة، لكن لا تيأس سيأتي عشاؤك الشهي، لكن قبل العشاء نطلب منك أن ترشدنا إلى عرين ملك الغابة، لن نؤذي أحدًا منكم، مجرد جولة سياحية في منطقتكم! هيا ارحل! سيتبعك هذا الكلب وبعدما توصله إلى هناك، ارجع لتأكل عشاءك وإلا سنعطيه للكلاب.

تردَّد الأسد النائب قليلاً ثم لمح الذبيحة وانطلق بسرعة فائقة جعلت الجندي يصفِّر له، وبَّخه قائلاً:

– عليك أن تنظِّم سرعتك مع الكلب، في البداية اتبعه حتى ذلك التل واحرص ألا تتقدمه حتى تتقن سرعته المعتادة، ثم تقدم منه بهذه السرعة حتى تصلا عرين الملك.

بدأ الأسد النائب ينظِّم خطواته مع الكلب، تعثر كم مرة في الطريق غير أنه عندما وصل التلال كان متقنًا لحركات الكلب، وسمح له الأخير بإشارة ذيله بأن يتقدمه وانطلقا نحو عرين الملك.

عندما بلغ العرين نبح الكلب لا إراديًا معبرًا عن فرحته بتنفيذ المهمة، إثرها ارتبك الأسد النائب وصاح على الكلب:

– ماذا تفعل؟

لم تمضِ ثوان حتى هبَّت الأسود إلى موقعهما ليتحروا عن مصدر النباح، فاختفى الكلب بسرعة وباشر الأسد النائب بالنباح، وحينما وصلت الأسود استغربوا نباحه وصرخوا:

– ماذا تفعل؟

– إنني أتمرن على مهمتي الاستطلاعية الجديدة...

نظرت إليه الأسود باستغراب ونفور، ثم ظهر الملك العجوز في عرينه، وضحك بملء فمه وقال:

– حقًا إنك سياسي محنك... استمر! وأنتم أيها الأسود الأغبياء ابتعدوا عنه ليركز اهتماماته على مهمته وتعلموا قليلاً من خبرات هذا الأسد المخلص لغابته.

ظلَّ الكلب مختفيًا لفترة من الوقت حتى اطمأن الأسد من نوم جميع الأسود ثم رجعا إلى القاعدة العسكرية، وسرد الكلب كل الحكاية لأسياده ما أدى بهم إلى الضحك بصوت عال من حيلة الأسد لحماية الكلب، وبدأوا يرمون الذبيحة قطعة قطعة نحو الأسد ويطلبون منه أن ينبح بصوت عال حتى يعطونه أكثر وظل ينبح كثيرًا حتى أتقن النباح.

مذاك الحدث وبعد ما شاهدت انتباه وإنشاد الملك بالأسد النائب، طفقت الأسود تتمرن خفية على النباح، وكثير منهم أتقنوا النباح وغدوا ينافسون الكلاب، الأسد النائب أخذ يهرّب بعض أصدقائه المقربين المحترفين في النباح إلى سهراته الليلية في القاعدة العسكرية، حتى عدد كبير من الأسود أصبح يمارس هذه الطقوس الليلية في موعد العشاء، مع هذا الأسد الملك ظل محافظًا على ماء وجهه ولم يحضر السهرة رغم علمه وتنسيقه مع نائبيه ومستشاريه الذين كانوا يحضرونها بانتظام ويرجعون إليه بقطع طيبة من اللحم المشوي.

بعدما شاهد رئيس القاعدة العسكرية من تقدم وسلمية في حياة الأسود، أقام حفلاً كبيرًا في سنوية استيطانه في الغابة ودعا الملك وكثير من الأسود المحنكين في النباح إلى مَأدبة العشاء، الأسد النائب كان عريف الاحتفال وبدأ كل الوفد الحاضر من الأسود يحسد الأسد النائب على مكانته بين الجنود، وحصصه الممتازة من اللحم المشوي وباتوا يتنافسون على التقرب منه.

أثناء الاحتفال، كلاب التجسس أخبروا رئيس القاعدة العسكرية أن هناك لَبؤة تعيش بعيدًا عن عرين الملك وتُعلّم أشبالها الزئير:"رغم كل النباح الذي تسمعونه حولكم، تبقون أسود الغابة"، الرئيس اغتنم فرصة الحفل وأرسل جنوده لقتلها بالأدوية، وأمرهم برميها بعيدًا عن طرق الأسود المعتادة كي لا يكشف سبب موتها.

عندما رجع الأسود من الحفل استغربوا بكاء أشبال اللَّبُؤة وهم يسألون عن أمهم التي غابت منذ زمن، فتفرقوا في الغابة يبحثون عنها أيامًا حتى عثروا عليها ميتة في إحدى الطرق النائية واستغربوا موتها.

في الأيام التالية، الأسد النائب الذي كان يقضي أكثر أوقاته في القاعدة العسكرية، حضر مجلس تأبين اللَّبُؤة بنيابة عن القائد العسكري وعَزَّى أشبالها بفقدان أمهم، ومن ثم اتجه إلى عرين الملك وقرأ على مسامع كبار الأسود رسالة رئيس القاعدة العسكرية:

– بعد ما قمنا بها من تحريات قد اتضح لنا سبب موت اللَّبُؤة وهو سلوكها الطرق النائية لمطاردة واصطياد الحيوانات الأخرى...

ثم أضاف الأسد النائب:

– لهذا القادة قاموا بمبادرة طيبة وأعدوا لكم كمية كبيرة من اللحم المشوي، سوف يغنيكم عن الصيد لشهور.

مذاك الحين، إكرامًا للبُؤة يقام مهرجان النباح سنويًا في ذكرى رحيلها، حيث الأسود تتنافس في النباح لساعات وفي نهاية الحفل توزع اللحوم المشوية بينهم على حسب مهاراتهم في النباح.

الرحلة إلى الطنطل

كنت في السابعة من عمري أو ربما أصغر عندما أصغيتُ سمعي، لأول مرة أتذكرها، لقصة عن ليالي غابة الطنطل كانت تُروى في مجالس الكبار؛ بعدئذٍ الاسم ظلَّ حاضرًا في ذهني وكنت أتوق أن أكبر لأروي قصتي عن الطنطل مثل الآخرين.

كان أهالي القرية يتهامسون فيما بينهم حول النساء الشابات اللواتي تركن الأواني والأزياء المتسخة على ضفة نهر دز وغطسن في الماء ليصلن إلى الغابة، بعد سماعي لقصص النساء العاشقات حاولتُ الغرق في أعماق النهر كي أعبر إلى الغابة، فمرارًا كنت أبتعد عن الحافة قدر الإمكان ثم أركض بسرعة وأرمي بنفسي في النهر، غير أن شخصًا ما كان ينقذني في كل مرة ويخيب أملي بالعبور.

في السنين اللاحقة اغتنمت أي فرصة لأحيا الليل في مقربة من غابة الطنطل، كنت أسهر مع صديقاتي في ليالي شهر محرم

ونقضي الليل بالتجول في شوارع القرية حتى الفجر ونترقب ليلة العاشر بلهفة عالية كي نسهر الليل باللطم على الزنود، والهوسات ودك الأرض بالأقدام، وهفا الشَعَر في الهواء، والبوح بالأحلام للنهر.

العشرة الأولى من شهر محرم كانت فستيوالا لنشاطاتنا الليلية، لم نفكر آنذاك بما كان يفعله الكبار من بكاء، وارتداء الأزياء السوداء، وتقديم النذور ودفع النقود إلى الملا والملاية الذين كانوا يحيون الليالي بأصواتهم الشجية، كنا نرى كل ذلك فرعًا مملاً يخص الكبار، إنما الأصل ما كنا نحن نؤديه في نهاية العشرة.

في الليلة العاشرة، كان علينا أن نرحل إلى النهر في ختام سهرتنا ونبوح بأمنياتنا له، ونرمي سبعة أحجار إلى أبعد مدى في النهر حتى ندفع الشر عن مستقبلنا، ونقرّب أحلامنا من التحقيق.

كنت حريصة على حجارتي منذ الليلة الأولى من شهر محرم وأجلت كل نشاطاتي، وجمعت كل طاقاتي لليلة الأخيرة كي أرمي حجارتي لأبعد مدى حيث تجتاز النهر وتسقط على رأس الطنطل، لأندس في غابته ولو عبر حجارتي.

في ختام سهرتنا قصدنا النهر وتفرقَّت الفتيات على الضفة بحثًا عن الأحجار المناسبة، كُل واحدة منهن اختارت لها سبعة أحجار تناسب كفها، حرصنا أن نختار أحجارًا ذات حواف مدورة كي لا تغرق في أول ملامستها للماء، وتستطيع مواصلة رقصها على سطح المياه لمسافة أبعد قبل الغرق النهائي.

صدى اصطدام الأحجار بالمياه كان يملأ الضفة حيويةً ونشاطًا، حيث تعلو ضحكات الفتيات أثر رمية ناجحة لإحداهن، وعندها يجتمعن حول صاحبة الحظ الأوفر حتى تكشف عن أمنيتها، في المقابل الأحجار الخائبة التي لم تبعد عن الضفة أمتارًا وتسقط بلا رجعة في أعماق النهر، كانت تجلب الغم والصمت الثقيل في الشط، غير أنها لم تلبث أن تبدأ الحياة ثانية بعد التسلّح بالأحجار المناسبة.

كانت الفتيات يخشين الطنطل ويحذرنني:

– لا ترمي حجارتك في الغابة، سوف يلاحقك الطنطل ويرميك بالأحجار حتى نهاية حياتك.

لم أعر اهتمامًا لمخاوفهن، وجمعت كل طاقاتي في يدي ورميت أحجاري واحدة تلو الأخرى، وارتفع صراخ الفتيات هيجانًا وخوفًا، وأحجاري حطمت أرقامهن القياسية وسقطت في ضفة غابة الطنطل.

لم أتسرع في رمي حجارتي الأخيرة، وقفت أنظر إلى الغابة وحجارتي تتدحرج بين أصابعي، الصمت ساد الضفة واقتربت الفتيات من بعض في خوف وهن يشرن إلى أشباح تراءت لهن تخرج من النهر، فطلبن مني أن أرمي حجارتي السابعة في الماء كي ترجع الأشباح لكني لم أرَ شبحًا بل كانت أمنيتي ترفرف قريبًا مني، وحجارتي السابعة كانت الجناح الوحيد والأخير الذي سوف يطير بي إلى غابة الطنطل حيث كنت أحلم بلقائه منذ أن وطأت أقدامي مجالس الكبار واستمعت إلى قصصه المدهشة؛ كانوا يصفونه بأنه يبصر في الظلام، ويتكلم مع الضفادع، ويسرق القمر في الليالي الدامسة، ويسجن الشيوخ ويوقف الزمن، ويتأخذ الظلام قاربًا ويلقي شباكه في الشاطئ ليصيد الجميلات، ويقطع الأشجار المظللة، ويمزق أكفان الموتى لتفيق الخطايا في القرية.

ظلَّت حجارتي السابعة تنتظر قدرها في يدي، صديقاتي حاولن أن ينتزعنها مني بعنف لكن يدي أصبحت كالفولاذ ودفعتهن بقوة حتى سقطت إحداهن على الأرض وأجهشت بالبكاء وصاحت علي الأخريات: "أنت مجنونة"، ثم ابتعدن عني في خوف ووجل، وظللت وحيدة مع حجارتي وأمنيتي في ضفة النهر.

رفعت يدي اليمنى في الهواء وحجارتي السابعة كانت تنتظر قدرها بين إصبعيّ، السبابة والإبهام، ثم تلامح لي الطنطل واقف قبالتي في غابته ينتظر حجارتي، ركزت نظري على أبعد نقطة في ظلام الغابة ورميت حجارتي بكل قوتي، سقطتُ بعدها على وجهي في الماء، لكني سرعان ما التقطت أنفاسي، ونهضت أتابع حجارتي بنظراتي وآذاني حتى تأكدت أنها عبرت النهر والضفة وسقطت في الغابة.

لم ألبث لحظاتٍ حتى وجدت نفسي وحيدة أقف في مركز دائرة من الظلام، كأن الزمن انسحب من الفجر المضيء إلى منتصف الليل المظلم، أم أنا ارتميت من الليلة القمرية إلى ليلة داكنة

تحجب سماءها الغيوم، خطوت خطوة مرتبكة وشعرت ببرودة الماء تلامس قدمي؛ ما أعاد لي هدوءًا نسبيًا وبدأت أحدِّد ملامح النهر والضفة عبر ضوء خافت لم يكن قادمًا من الفجر ولم يشع من السماء، كأنه كان ينبثق من مكان غير واضح في جسدي.

أدرت وجهي إلى الضفة لألحق بصديقاتي غير أني لم أرَ أثرًا منهن، ولا الشريعة التي خرجن منها كانت موجودة، كأني منذ زمن طويل افترقت عنهن وعشت عمرًا في الشط أستعد لرمي حجارتي.

أصغت سمعًا لصوت المآذن من القرية، ليكن بوصلة للرجوع إلى حيث بدأت سهرتي؛ لكن نقيق الضفادع كان الصوت الوحيد الذي يخدش صمت الظلام... أشجار الغَرَب كانت متشابكة بكثافة على حافة النهر الحادة ولم يبدُ أن شخصًا ما شق مسيره يومًا من بين أغصانها المتراصة.

ظللت متسمرة في مكاني أبحث عن طوق نجاة يرجع الزمن إلى الوراء حيث لم أرمِ حجارتي، أو يرميني إلى المستقبل البعيد

حيث ينتهي الظلام والغابات... بعد هنيهة تراءى لي سطح الماء يعلو في النهر، والحافة تزداد ظلامًا، وطفقا يتقدمان نحوي ليدفناني مع الضفادع الموحلة، شعرت باعتصار في قلبي وكنت على حافة ذبحة قلبية عندما باغتني ضفدع كان ينظر إلي بعيونه الجاحظة.

لمعان عيونه شرح صدري، وانحنيت نحوه لأراه من قريب، علا نقيقه وقفز إلى الأمام، ثم توقف وأدار عينيه نحوي وعلا نقيقه ثانية، أحسست كأنه يحاول أن يقول لي شيئًا، فحينما قفز ثانية تبعته وشققت سيري بين الضفادع الأخرى التي لم تكن تكترث لأمري، واجتزت الظلمة والوحل دون أن أرفع بصري عن ضفدعي المرشد حتى وصلنا إلى منفذ بين الأغصان.

دلف الضفدع بين الأغصان وغاب عني، تأنيت لهنيهة ثم أحنيت رأسي وأخذت أحبو على ركبتي في الممر الطويل والضيق حتى خرجت إلى أرض واسعة، نفضت التراب وأوراق الأشجار عن نفسي ووقفت على أصابع قدمي أبحث عن معالم قريتي، لكني لم أرَ أي أثر لها ولا لأي قرية أخرى، شعرت بأني واقفة في قلب فراغ لامتناهي، فانطلقت مسرعة في ذلك

الفراغ لأهرب منه أو أحدث تغييرًا في شكله، في هذه الأثناء انتبهت أن ضوءًا طفيفًا بدأ يُضيء دربي؛ ولَّما رفعت يدي أدركت أن أحد خطوط كف يدي اليمنى كان يشع بالضوء.

* * *

لم أعرف كم من الزمان مضى على رحلتي حتى أوقفني حقل من النور كان يشع على مقربة مني... وقفتُ متسائلة: "ما هذا؟ هل هذه قريتي؟ كيف تحولت فوانيسها النفطية إلى هذا الحقل المُضيء؟ هل هذه هي المدينة التي وعدني أبي بزيارتها؟"... لم أبقَ في حيرتي وتوجهت مسرعة إلى مصدر الإضاءة، حتى توقفت على حافة هوة عميقة كانت أشعة النور تنبثق من قاعها.

المجاريف وأكوام التراب كانت تحيط بالحافة وملابس العمال المبعثرة، ومواقد الطهي الحارة كانت تفشي بأنها لم تمضِ سوى ساعات على انتهاء الدوام هنا... تقدمت أكثر وأخذت بنظري أحدق في الأعماق فرأيت القمر مكبلاً بالقيود، كان يتأوه في قعر الهوة العميقة، شهقتُ فزعًا وصحتُ في داخلي:"لِمَ أرخت حضنها السماء؟" ثم مددتُ يدي لأمسك به، لكن الهوة كانت

عميقة ويدي قصيرة، فاقتنعت بمرور أصابعي بين أشعته الهاربة من القيود، بعدئذ سمعت همهمة من بعيد، فوقفت على أصابع قدمي؛ رأيت جماعة من الأشباح يحملون حقائبهم ويتجهون بسرعة نحوي.

اختفيت خلف تلٍّ من التراب وراقبتهم حتى باشروا بالعمل، لبسوا بدلاتهم الرمادية وكل منهم أمسك بمجرفة يدوية وأخذ يصب التراب على القمر، من ثم تقدم قائدهم، أشعل سيجارته وأحنى رأسه نحو الأسفل، ونفث الدخان في الهوة وناداهم:

– أسرعوا! أسرعوا! ادفنوه! قبل أن يأتي الطنطلُ بالشمس...

كنتُ أعرف الرجل لكني احترتُ بين الأسماء، كأنه كان يتنقل بينها جميعًا ما زادني فزعًا، وتدحرجتُ على الأرض ببطء حتى خرجت من المنطقة الضوئية، ونهضت في حدود الظلام ثم اتخذت مسيرًا آخر، ورفعت يدي لترشدني في الظلام وانتبهت أن الضوء يشع من خطين في راحتي.

بكيتُ القمر وخطوت خطواتي بلا هدف عبر ضوء يدي الخافت، لكن التأني كان يزيدني وحشة وحيرة وكنتُ أصطدم

بأشياء لم أكن أعرف طبيعتها فتزيد من هلعي، جريت أركض بسرعة، دهست الأشياء الصغيرة ودهستني الأشياء الكبيرة، والتقطت أنفاسي وتابعت.

* * *

بعد فترة زمنية عشتها في الجري بلا هدف، سمعت أنينًا كان يحدث شرخًا في صفو الظلام، التفتُ حولي وأرهفت سمعي لأحدد مصدر الصوت، عبر ضوء يدي حددت معالم قلعة طينية من بعيد وخطوت بحذر نحوها...

دخلت إلى ساحة القلعة وكانت كبيرة نسبيًا وتفتح عليها أبواب لغرف حولتها العناكب إلى بيوتها، بعد هنيهة أفزعني صوت الأنين القادم من الأسفل، وهبطت السلم الطيني أبحث عن مصدر الصوت فإذا به يصدر من قبو في أسفل القلعة، دفعت الباب وانفتح بسهولة، وقع نظري على كوة في السقف العالي، ثمة ضوء طفيف كان يتسلل منها ويضيء القبو، أدرت بناظري في أرجاء القبو وارتعشت فزعًا حين رأيت الرجل العجوز يقف بانحناء في ركن القبو شبه المعتم، كانت عيناه

نصف مفتوحتين وشفاهه الصفراء مليئة بالشقوق، كان مرفوعًا من ذراعيه كأنه مشدود بشيء لم أتمكن من رؤيته، وكفاه الزرقاوان كانتا تبوحان بأن الدم لم يصل إليهما منذ زمن طويل.

اقتربت منه فوجهه بدا مألوفًا لي، وحين ثَبَّتُ نظري عليه كان يشبه صورة جدي المعلقة على جدار بيتنا وكذلك بعروق رقبته البارزة كان يشبه أبي، ضربتُ بأطراف أصابعي عدة مرات على كتفه، رفع نظرته الذابلة نحوي، لم ألمح على وجهه علامات الاستغراب كأنه كان ينظر إلى مشهد يومي ممل... ناديته:

– يا جدي، أنزل يديك كي يجرى الدم فيهما، لِمَ ترفعهما إلى اللاشيء؟!

بحركة بطيئة فتح فمه وقال:

– إني محكوم بالسجن المؤبد، وكما ترين يداي مقيدتان بقضبان السقف الحديدية، حذرني السجان إذا أطلقت يدي سيبترهما بسيفه الحاد.

استجمعت كل شجاعتي وصرخت:

– لا يوجد سجَّانٌ هنا ولا حديد، القلعة متروكة منذ زمن طويل، لا أثر للحياة فيها سوى أنينك...

ثم أمسكت بيديه لأنزلهما، لكنه انتصب مذعورًا وصرخ:

– لا تلمسي الجرح أيتها الساحرة، اخرجي من هنا! لقد حذروني منك!

انسحبت منه في صمت وحاولت أن أترك القبو؛ فإذا بصوته الهزيل يوقفني في الباب لهنيهة:

– لتطردي النار عن نفسك، اعملي خيرًا قبل رحيلك! أصلحي الكوة في السقف وإلا سوف يتسلل الطنطل إلي منها.

أدرت ظهري إلى القلعة وانتبهت أن ثلاثة خطوط ضوئية أصبحت تضيء كفي، ثم انطلقت في أرض غدت لي أكثر مألوفة من ذي قبل.

* * *

أوقفتني ضحكات غريبة تردد صداها في الفضاء ثم تغير لحنها وأصبحت بكاءً شديدًا وانتهت في صمت ثقيل، أدرت برأسي أبحث عن مصدر الصوت فاستطعت تحديد معالم خيمة يقف قبالتها شبح رجل وبيده نقطة حمراء، اقتربت من الخيمة واختبأت خلف تل قريب منها، الرجل كان يشعل سيجارتين، يرمي الأولى في بئر وسط الخيمة ويتصاعد الدخان من البئر، ثم يدخن الثانية وينفث دخانها في الهواء إلى جانب دخان السيجارة الأولى، بعد هنيهة مرة أخرى انتابته نوبة ضحك كادت تقترب من الهستيرية، وبعدها بكاء شديد جعل أكتافه تهتز وتأوهات خفيفة رافقته من البئر، وفي الأخير صمت ثقيل طوق المكان لثوان بعدئذ التفت حول نفسه ومد رأسه في البئر وناداها بصوت خفيف:

– أمسكي بالحبل واصعدي! تعالي تناولي معي الفطور! قريبًا سينتشر الرعاة في الأرض.

ثم خرجت امرأة شابة من البئر وجلست قبالته، كنت أعرفها قد سمعت قصتها كيف هربت مع الطنطل...

توسلت المرأة إليه كي يأخذها معه إلى البيت، لكنه حرَّك رأسه رفضًا وقال:

– سواي من يصدق بأنك غصتي في الماء لتهرّبي الأسماك من شباك الصيادين.

كنت أخشى أن أسلك أي درب وقد ينتهي بي إلى جرح آخر، رفعت يدي لترشدني وكانت مضيئة بأربع خطوط.

* * *

توجهت إلى أرض منخفضة كانت النجوم تملأ سماءها، كأنها هربت من الأنين في الأعالي الذي كان قريبًا من مسمعها واصطفت تضيء هذا الوادي المختفي في قلب الصحراء كقطعة الماس تزين معصم الليل، أريج الأشجار المزهرة أعاد النشاط إلى قواي الخائرة وطفقت تركض قدماي بخفة نحو الوادي، وألوانه المتماوجة بين الأصفر، والأخضر، والفضي؛ كانت بمثابة نافذة إلى صباحي الضائع.

امتلأتُ برائحة العطور واقتربتُ من الأشجار لأتناول من ثمارها الناضجة؛ وإذ بي أسمع حفيف الموت يخرق سُكُون جنتي الصغيرة، أحسست أني محاطة بالأصوات الشجية والرقيقة وهي تردد:

– أمي! أمي! لا تموتي! لا تتركيننا بمفردنا!.

وبعد هنيهة سمعت صوت الأم المتحشرج والمتقطع بصعوبة:

– سنجتمع بعد الموت حين تكبرن، حتى ذاك الحين ارفعن رؤوسكن إلى السماء لتستنشقن الهواء الطلق، وتأكلن الطيبات من جذور الأرض، استمتعن بالحياة ولا تهدرن العمر في الخوف منهم ولا تدعن الخوف يكسر ظُهوركن قبل العمر.

كانت الشجيرات تلف بأغصانها الصغيرة حول الشجرة المجروحة بضربة فأس واستمرت في النحيب حتى غفت على تلك الحالة وتنهدت الأم:

– إنهم سيعودون غدًا بفأس أكبر أو منشار كهربائي لينهوا جريمتهم، غير مبالين بالألم الذي يسببونه لي ولشجيراتي

الصغيرات، ليتهم لم يفعلوا هذا أمام الشجيرات ويتسنوا فرصة نومهن لإعدامي.

شعرتُ بأن النجوم أغمضت عيونها والظلام بدأ يغمر الوادي، كان الضجيج يأتي من عدة جهات وصعدتُ أول ربوة لأحدد مكاني ومكانهم، رفعت يدي ورأيت الشاحنات تقترب من الوادي، بعد لحظات توقفت الشاحنات والرجال ذوو البدلات الخضراء الغامقة أنزلوا المنشار الكهربائي وحركوه نحو الشجرة وهم يقهقهون:

– ستصطدم العصافير ببعض في السماء من هول قطع الشجرة.

نبههم بحضوره الرجل ذو اللحية الطويلة، وعلا صوته يخاطبهم:

– اتركوا العصافير وسوف يُضْنِيها التشرد في الفضاء اللامتناهي وسترجع لتجلس على أفواه بنادقكم بعد ما تفقد منازلها، أما الآن عليكم بقطع الأشجار الفاسقة التي تؤمّن الطنطل في أحضانها.

أفزعني صوت المناشير وانسحبت إلى الوراء، الظلمة عمَّت المكان ولم تعد نجمة تومض في السماء، لكن يدي أصبحت باقة من نور، وخمسة خطوط كانت تضيء كفي.

* * *

عبر ضوء يدي صعدتُ الربوات واحدة تلو الأخرى، حتى بلغت قمة أعلى جبل كان يحيط بالوادي، مع هذا لم أمسك بنجمة لأمنعها من نومها المستعجل، بل أمسك بي حفيف أقدام شعرت بها تخطو قريبًا مني، ففركت أذني وأرهفت سمعي، وحددت شبح إنسان كان ينفض عن نفسه شيئًا ما، دنوت منه بخطى وئيدة؛ كان شفافًا كالبلور استطعت أن أرى أبعد الليل من خلاله، وقفت على مقربة منه وظللت ألوح بيدي حتى وقع نظره علي، نظر إلي بدهشة، ثم ابتسم وقال بصوته العنفواني:

– كنت أعرف أنك ستأتين...

هممت أن أتقدم؛ وإذا بصخرة انزلقت تحت قدمي وتدحرجت على الأرض، حتى تهادى إلى مسمعي وقع سقوطها من حافة الجبل، ترنحت في مكاني مرتعبة وكدت أتدحرج إلى الحضيض

خلفها، فإذا به مدَّ يديه من بعيد وتوَّج يدي بإكليلٍ من الضوء ما وثَّبتني في مكاني ثم أشار إلى الأسفل وقال:

– احذري!

بعدما أعاد لي الاستقرار النسبي؛ اقتربت إلى حافة الجبل فملأتْ أنفي رائحة الدخان المتصاعد من قاع الحضيض، ومن ثم شعرت كأنها اختلطت برائحة الأجساد النتنة، اندفعتُ لا إراديًا إلى الوراء وعدلت مكاني وكتمت أنفي بأصابعي، لكن الاستغراب دفعني ثانية أحدق في الأسفل، كان المكان يضج بالأنين والصياح تارة يعلو وتارة ينخفض.

رأيت فئات مختلفة من الناس كانوا متفرقين في الأرض وكل فئة كانت تحمل نعشًا على أكتاف أبرز رجالها، ومواكب التأبين كانت تسير مرددة الأناشيد لبرهة قصيرة، ثم تضع النعوش على الأرض لتتقاتل فيما بينها في محاولة لتحطيم النعش الآخر، وثانية تنطلق في سيرها دون أن تعير اهتمامًا للقتلى والجرحى الذين سقطوا على الأرض وتدهسهم المواكب واحدة تلو الأخرى.

استطعت تحديد ثلاثة مواكب لكن الشبح قال:

– إنها أكثر، هؤلاء يقيمون مراسيم تأبين، كل منهم يحمل نعشًا يظنه يحملني...

– فلنُزل الغطاء ليروا الحقيقة!

قلت هذا ثم مددت يدي إلى الأسفل لأسحب الغطاء.

– احذري! سيجرك الحضيض إلى الأسفل، لم تنتهِ الأغطية وإذا سحبتي واحدة سيحيكون أخرى أكثر سماكة.

– إذن؟

– ستلتقي العشاق هنا، ويتقلَّص الموت هناك.

ثم مدَّ يده نحوي وأمسكت بها، وإذا بحجارتي السابعة رأيتها تلمع في كفي.

obeikan.com

سِمُّ التمر

لَمَّا نظرتْ إلى باحة البيت الواسعة أَوجعها التمر الساقط على الأرض، وطفقتْ تأخذ خطواتها بحذر لئلا تسحق بنعالها الثمار الناضجة التي لم تعرف طريقها إلى جائع ربما يحلم بها خلف جدران البيت الشاهقة؛ وسقطت على الأرض خائبة في مقربة عن الموت الكامن في أحذية المارة في نهاية يومها الممل.

رفعت بصرها إلى العراجين المثقلة بالثمار وتراءت لها التُمُور تترنح مع الريح؛ كأنها تبحث عن كف تلد نواتها فيه بعدما استبد بها اليأس؛ وقد كانت تحلم بأطفال مشاغبين وجائعين، يلتهمون ثمرها في بداية حلاوته قبل أن يطيب ليحرروها من العبء الثقيل والمنتظر على أغصانها، الذي يزداد كل يوم ميلاً إلى السقوط على الأرض.

دلفتْ إلى حديقتها المزدانة بالأزهار، وتفحَّصتْ العراجين عن قُرب، ثم قالت في سِرِّها: "سوف تعبث العصافير العابرة بالتمر في هذه السنة كما فعلت في السنين الماضية".

أغمضت عينيها وملأت رئتيها بالهواء المعطر، رائحة الزهور كانت تفوح في أنحاء البيت وتعبر الجدران والقضبان إلى الشارع ودون أن تنتظر دخول أحد، تُعطي العطر والجمال لكل مار من الباعة الجائلين والمتسولين إلى السادة ذوي السيارات الفخمة، من يحملون عطرها معهم إلى شققهم الباردة في نهاية الليل، أو إلى مكاتبهم المملوءة برائحة الغبار والأصص الضيقة التي تحتضن الزهور والنخيل الصناعية بلا عطر وثمر.

على مدى الأيام، تحولت ساحة الرصيف عند باب عمارتها إلى إحدى المحطات المحببة لدى المارة، الأمر الذي أثار انزعاجها كثيرًا حتى أمرت البوّاب ألا يسمح لشخص أن يمكث هناك بذريعة ظلال الأشجار، وهي تعرف أن العطور والروائح هي من توقف المارة، البوّاب لم يهمل أمر سيدته ووضع سياجًا حول الباب احتل ثلث الشارع وأبعد المارة من شم العطر وهوس التوقف.

لا يبشرها عمرها؛ وهي في منتصف العقد الرابع منه؛ بمعجزة قد تبرعم في هذا البيت الكبير في السنين القادمة، لتلتهم هذه

التمور المنتظرة، حتى لو خرجت تبحث عن الحياة كما تقول أم علي جارتها والصديقة القديمة لأمها الراحلة.

منذ سنوات وأم على تلقي اللوم عليها لخمولها حسب تعبيرها وقلة خبرتها في التعامل مع الرجال وأمهات الرجال، وتردد حكمتها الجارحة كُلَّما رأتها: "البنت الشابة هي شتلة خضراء، والرجل مثل البستاني يبحث عن أطيبها ليغرسها في بيته، يعطيها الماء والضوء والتربة الخصبة؛ وتعطيه الثمر والجمال والظلال، وفي غياب البستاني تجف في منبتها وتُرمى مقطوعة من الجذور، وجافة خارج الحدائق والبساتين، بعضهن يصبحن الشندل لسقوف بيوت أهلهن، وبعضهن يصبحن حطبًا لمن ضايقه البرد أو المرض في بيته وخرج يبحث عن دفء عابر يسليه وينسيه همومه لساعة خارج البيت، أو ربما يصبحن نُعُوشًا يحملون الأموات عليها".

كلمات أم علي ظلت متشبثة بها في السرير، وأشباح سيناريوهاتها المرعبة للشجر خيمت على مخيلاتها، اندست تحت غطائها لتهرب منها، غير أن هروبها لم يجدِ نفعًا ولكثرة

التصورات أصابها أرق شديد طرد النوم من عيونها واستبدله بصداع شديد ظلَّ يتنقل في رأسها بلا رادع، كأنه رياح عاتية تصهل في أرض خاوية... كانت تعرف أن حديث أم علي ليس نصيحة لها بقدر ما تستعمله كقناع تخرجه من فمها حين تريد أن تُغطي على التعاسة التي عاشتها طوال السنين، مع ذلك كانت تعزف قريبًا من أوتارها، وفكرت مع نفسها: "لو كنت ألطف مع العصافير ودعيتها تعبث في العراجين؛ لكونت لي صداقة مع أحدهم، وبدل ثرثرة أم علي الجارحة أصغيت سمعي إلى زقزقته في الصباح".

تقلَّبت في السرير دون أن تطبق أجفانها، ثم شعرت بغمامة سوداء تجثم فوق صدرها وصعبّت عليها التنفس والحركة، بعدئذ نهضت وشربت كوبًا من الماء لتعيد الروتين لأنفاسها، وعادت إلى السرير تترجَّى النوم ليهرب بها من قبضة الأرق المخيف، غير أنها ظلت فريسة الأرق والصداع دون أن تتذوق طعم النوم.

بعد ذلك أرعبتها طقطقة في السرير وأجالت بعينيها في أرجاء الغرفة، تراءت لها الأجنة تجتمع تحت سريرها، وفكرت أنها صوت المناشير أتوا بها ليحولوها إلى نعش؛ وانتفضت مذعورة وابتعدت عن السرير، وللحظة أرادت أن تكون حطبًا غير أنها لم ترَ أثرًا للنار في غرفتها الباردة، فشعرت بقشعريرة تعتري جسدها وكادت تجمّد الدم في شرايينها، فألقت بنفسها على باب الغرفة وخرجت متمسكة بالجدار ثم ارتمت بجسدها على الأريكة في الصالة، والتقطت أنفاسها بصعوبة.

بعد هنيهة انسحبت عنها الغمامة السوداء وبدأت تبصر ملامح وجه أبيها وهو يدخل البيت يحمل قفلاً كبيرًا بيده، دون أن ينظر إليها خاطب أمها التي كانت تخرج من المطبخ:

– ابتعتُ لها ڤيلا كبيرة ستعيش فيها حُرَّة وعزيزة مع من يناسبها شأنًا ومكانة، وإلا لن تكون نهايتها أفضل من زينب.

ركضت خلفه لتعود بالمفتاح وتبدأ الدوام مع زينب زميلتها في المدرسة في محل الخياطة، غير أن الصورة ابتعدت عنها، أصرت على ملاحقتها لكنها اصطدمت بالباب المقفل من الداخل

وتلاشت الصورة نهائيًا أمامها، رجعت بنظرها سريعًا إلى المطبخ، بين الدخان المتصاعد هناك لمحت أمامها صورة أمها المرهَقة بين روائح المطبخ والدخان، ودلفت في الدخان كي تحضنها، لكن سرعان ما تلاشت الصورة وكأنها احترقت على الفرن الذي أصبح باردًا جدًا بمجرد ملامستها له.

الصمت ساد القيلا الكبيرة لهنيهة ثم ارتفع صوت الطقطقة من الزوايا المظلمة؛ فارتعدت مذعورة وهربت إلى سطح البيت حيث القمر كان يضيء السماء باعتدال، ولم تبقَ نقطة مظلمة تخفي طقطقة، بعد لحظات امتلأت عيونها بالنعاس وعلى أجنحة هبوب نسيم بارد غطت في النوم.

أفزعها صوت سيارة الإسعاف التي رُكنت عند باب عمارتها في الفجر الباكر، رغم هذا نهضت نشطة كأنّها ولدت من جديد، وأحست أنها استغرقت ساعات أو ربما عدة أيام في النوم على سطح البيت، النوم الرغيد الذي تذوقته للمرة الأولى في حياتها، بعدئذ اقتربت من حافة السطح وألقت نظرة على الشارع الذي كان ينهض من نومه والعصافير كالمنبهات

اللطيفة كانت ترقص على أكتاف الشجر وتنبه الشارع باقتراب الصبح كي يفتح أحضانه للحركة والحياة.

لمحت أم على تُكلِّم رجلين يرتديان معطفين أبيضين وتشير بيدها نحو السطح، ثم رفع الرجلان رؤوسهما ولمحاها على السطح واتجها مسرعين نحوها وهما يجران سلمهما الحديدي خلفهما.

أدركت خطورة الموقف وابتعدت عن الحافة ثم سمعت زقزقة عصفور في الجانب الآخر من الشارع، أحست بأن عصفورها يناديها، ومدت رأسها في الهواء تبحث عن مصدر الغناء وإذا بها رأته يرفرف قريبًا منها.

أحاط بها الرجلان وحاول أحدهما حقنها بإبرة طبية، لكنها بحركة سريعة أفلتت من قبضته، غير أن ذا المعطف الأبيض الآخر سد الطريق عليها ولم يبقَ أمامها منفذٌ للهروب سوى زقزقة عصفورها المتواصلة.

obeikan.com

الذُبابة

مطَّ جبينه، قطب حاجبيه، جمع أنفه، أحدث همسًا بزفيره، عض على شفتيه، جمع شفتيه وصَفَّر، بصق إلى الأعلى بكل قواه؛ غير أنها لم تأبه لمحاولاته وملأ وجهه البصاق، وحركات عضلات وجهه المتواصلة لم تستطع ردع جماحها، لم ترعبها أنفاسه المتصاعدة، وظلت مستلقية على سريرها الدافئ فوق أنفه، وعلى إيقاع زفيره أخذت تذبذب بين منخريه.

بعد هنيهة طارت برضاها من أنفه ولم تلبث أن عادت وحطَّتْ على شفته السفلى، فتحمَّس لإلحاق الهزيمة بها هذه المرة؛ وأنها أصبحت في مرمى ضربات فمه، ولطالما كان لاعب وسط متمرسًا، أخذ نفسًا عميقًا، وملأ رئتيه بالهواء ومن ثم زفر بشدة كأنما كان يستجمع كل طاقاته البدنية المسجونة في أنفاسه لترحل به في جولة بعيدًا عن هذا السرير؛ فطارت الذبابة مرتعبة وغابت عن مرأى عينيه.

نشوة الفوز جعلت أجفانه تثقل؛ فأطبقها لفترة قصيرة قضاها بين الخيال والذكرى، وهو يرى طفلاً مشاغبًا يركض خلف الذباب هنا وهناك؛ متسلحًا بمكنسة أمه المصنوعة من سعف النخيل، ويحاول القضاء على أكبر عدد من الذباب.

ثقل حضورها لم يدعه يواصل الجري في واحات الذكرى الرحبة، وأعاده إلى المواجهة بعينين مفتوحتين على اتساعهما، أجال بنظره في الغرفة ولم يرها، قاد بصره بامتعاض إلى قدميه المرفوعتين عن جسده بفعل المخدة القطنية، لمحها تتنقل بين أصابع قدمه اليمنى كأنها حطت رحالها هناك منذ زمن غير معروف، قال في سره: "ربما هي لم تبتعد عني قط، وعندما كنت أحتفل بفوزي هي كانت تمرح في القسم السفلي من جسدي". مكثت الذبابة بمرمى خيبته فانسحب إلى خارج الميدان وحاول أن ينسى اغتصابها، ويفكر بملعب آخر يستعيد به السيادة الكاملة على جسده، رحل إلى ساحة المدرسة الثانوية حين كانت الكرة لم تلبث أن تلمس أصابعه حتى تطير نحو المرمى، في آخر سنة دراسية تُوِّج بلقب أفضل هدَّاف في مسابقات

المدارس، ومن ثم كان يتهيأ للالتحاق بأحد النوادي في المدينة، غير أن والده صَمَّمَ حازمًا أن يؤجل ممارسة كرة القدم إلى بعد امتحان دخول الجامعة كي يضبط مستقبله بشهادة جامعية، ويمارس كرة القدم لاحقًا كهواية وكذلك باحترافية.

ترك جسده بكامل عافيته منكبًا على الكتب في ليلة الامتحان وعاد إلى الذبابة، هذه المرة رحّب بها بابتسامة عريضة وقد أنقذته من هول الذهاب إلى الامتحان قبل أربع سنين، الذكرى المريرة التي تخنق أنفاسه كلما تذكر ذلك الحادث المريع الذي غيَّر حياته رأسًا على عقب... تلك النقطة المظلمة في حياته التي ربطته بالسرير إلى الأبد، هو ووالده كانا مخططين لكل شيء بالتفصيل، تهيئة نفسه لدخول الجامعة، واختيار التخصص المناسب الذي يضمن له مستقبلاً وظيفيًا أو علميًا جيدًا، وأخيرًا تاريخ العودة إلى مواصلة كرة القدم.

كل شيء كان مدروسًا، وهو بذل جهدًا كبيرًا ليواظب على تقدم الخطة نحو التحقيق بإتقان، غير أن شيئًا ما لم يكن بالحسبان؛ سائق متهور كان يقود سيارته بسرعة عالية في

منعطف الجامعة واصطدم بالسيارة التي كانت تقله إلى جلسة الامتحان وإثر ذلك حدث قطع في الحبل الشوكي في رقبته؛ ومذاك الحين لا يستطيع أن يحرك أي عضو من جسده بإرادته سوى وجهه.

* * *

ابتعدت الذبابة عن أصابعه ولم تلبث لحظاتٍ حتى رآها تحطُّ على كفِّ قدمه اليمنى، لم يحس بعد ماذا فعلت بجسده، غير أن طنينها أوحي له بأنها بدأت تدب فوق ساقه متجهة نحو الأعلى، تركت الضوء خلفها وتحدت الظلام في أعلى ساقه ودخلت عتمة سرواله.

استغرب سلوكها وتساءل في نفسه: "لِمَ تتصرف خلافًا لطبيعتها؟ ربما الحرية المتاحة لها جعلتها تفتح آفاقًا جديدة في حياتها، وأنها لم تعثر في حياتها على وجبة بشرية جاهزة لا تستطيع الدفاع عن نفسها سوى مط الجبين، إغلاق الرمش، وجمع الأنف والزفر..."، تصورها كيف تنْزلق على ساقه

وتلعب الغميضة في شَعره؛ الأمر الذي أصبح مزعجًا له وتأفف: إلى أين ستستمر في هذه المغامرة؟.

طنينها العالي في أذنه أخرجه من تصوراته، فأغمض عينيه وحاول بكل جهده التركيز على أذنه عله يستطيع أن يحركها ويبعد هذه الذبابة المشاغبة عنها، تذكر أحد زملائه في الثانوية الذي كان يمتلك القدرة على التحكم بأذنيه، وقتها كان يجتمع مع باقي الطلاب حول زميلهم، أبو آذان، كما كانوا يسمونه ليروا رفرفة أُذْنيه وسط تصفيقهم الحار، وسرعان ما كان يبادر الجميع بالمحاولة للنيل من آذانهم، لكنه لم يتذكر أنه استطاع أن يحرك أذنيه مرة.

* * *

وجّه كل قُواه الذهنية نحو أذنه كي يهزم هذه الذبابة المصرة على قربه، وبعد هنيهة أحس أذنه ترف بشدة كعلم يرفرف في مهب الريح ويهش أسراب الذباب، فنأى الطنين عن أذنه وظلت أذنه ترف وحدها لثوان، كان سعيدًا بالقدرة التي امتلكها بعد ست سنوات من الانتظار.

قبل أن يفتح عينيه كاملاً، أفزعته الذبابة المحلقة على بعد سنتيمترات من وجهه في استعراض بهلواني، شهق خوفًا واستغرابًا وأغمض عينيه بسرعة، لكنه ظلّ يشعر بثقل حضورها أمامه، استعاد جرأته وفتح عينيه نصف فتحة، غير أنها لم تزل في استعراضها المخيف، استطاع أن يحدِّد عينيها وهي تنظر إليه مستقيمًا وبحدة مفزعة، ظن أنها غاضبة منه لأنها وجدت نفسها لأول مرة أمام حركة لم تعهدها من قبل، أطبق جفنيه مرة أخرى علها ترحل بغضبها، لكنه شعر بملمس قوائمها على خده، كانت تتحرك ببطء وطمأنينة، كأنها أنامل ناعمة ترسم معالم وجهه من جديد، وتجعل الدم يتدفق بسرعة في عروقه، كان لحركتها عطر كشذا القبلة الأولى، وأحس أن جسده امتلأ بهذا العطر.

بعد هنيهة عدلت مكانها وأصبحت أمامه وجهًا لوجه، فتح عينيه بطمأنينة هذه المرة وثبّت نظرته عليها، تراءت له تبتسم، فابتسم لها وأسبل أجفانه في منى قبلة أخرى وهو يقدم لها وجهه

تمامًا لتمرح هناك بحرية وود، ولا تبقى غاضبة منه، أو تتجه إلى ناحية أخرى من جسده ليست في مرمى شعوره.

ظلَّ مغمض العينين لهنيهة ينتظرها، وتخيّلها تحلق بفخر بالقرب من سقف غرفته بعد أن هزمته في آخر حصنه، وجهه، وتمنى في سِرِّه أن يعود بها الحنين إليه... أرهف سمعه لطنينها، وفي ضوء الغروب الفاتر حددها تلصق بجسدها على زجاج النافذة، والتمعت عيناه بسعادة غامرة وبدا له أنها حالما لمحت انتظاره المرهف؛ ابتسمت وجمعت أرجلها لتعود إليه، غير أن بهجته لم تطل، وأفزعهما صوت السيارة التي دخلت البيت وركنت بجوار نافذة غرفته، ضوء مصابيحها اغتصب حريم الغرفة وقطع الخط الضوئي الخافت الممدود بين عيونهما، أغمض عينيه لهنيهة ليعيد تركيزه لكن قبل أن يلتقي بذبابته، أحد ما أضاء مصباح الغرفة وأعلن بداية الليل.

حدق في النافذة بحثًا عنها ولم يرها، أجال بناظريه في السقف، والجدار المقابل لسريره، رفع عينيه ومد بصره إلى حيث يصل، لكنها لم تكن هناك كأنها ذابت في ضوء المصابيح، خطر بباله

ربما هي تتعمد الاختفاء، وتود أن تمارس لعبة الغميضة معه بعد ما تحوَّلت علاقتهما من الكَرِّ والفَرِّ إلى صداقة حميمة طيلة الساعات الماضية، وقد تكون مختفية الآن خلف رأسه أو قريبًا من أذنه، كاتمة طنينها وتنتظر اللحظة المناسبة لتلقي بنفسها عليه، أغمض عينيه ليشاركها اللعبة وطفق يشعر بها تقترب من فمه، وهَيَّأَ نفسه لقبلتها القادمة برسم ابتسامة عريضة على شفتيه، وهو مازال يستنشق عطر قبلتها الأولى... لم تمر ثوان حتى جاء صوت الباب الذي فتح بعنف؛ بعثر أوراق خياله، وشاهد الممرضة تتجه نحو سريره وبيدها صينية الطعام، وضعت الصينية على الطاولة الصغيرة في نهاية سريره وأزاحت الأغطية عنه وعدلت سريره لتتمكن من إطعامه.

تظاهر أنه نائم، علّها ترحل وتتركه يواصل لعبته مع صديقته، غير أن الممرضة لم تأبه إلى عيونه، ملأت المعلقة بالطعام ودسّتها عنوة في فمه، فتح عيونه رغمًا عنه، وتعاون معها في الأكل كي ينهي مهامها في غرفته بسرعة، ثم دخلت واحدة أخرى، قالت للأولى:

– عنده زوار، غيري ملابسه وأغطيته.

بعد إنهاء مهامها خرجت الممرضة وتركت الباب نصف مفتوح، ثم سمع حفيف الأقدام تتجه نحو غرفته، أدار بعينيه مضطربًا في أرجاء الغرفة، ليرى ذبابته قبل أن يأتي الضيوف المملين حسب عادتهم في نهاية الأسبوع... شرد بنظراته المضطربة إلى النافذة، وأصابع قدميه والطاولة إلى أين ما تنال عيناه، لكنه لم يرها... كأنها حلم ذاب في ضوء المصابيح، وسالت على خده دمعتان كانتا تترقرقان في عينيه منذ زمن بعيد.

obeikan.com

المحطة الأخيرة

أدركت المحطة في وقت مظلم، وطفقت تدور برأسها في سواسية العدم علها ترى أطلال صبح قريب، لم تعرف إذا كانت في بداية الظلام أم نهايته، كلما حدَّقتْ في معصمها لم تستطع تحديد الوقت؛ ذكرت أنها تركت ساعة يدها في البيت متوقفة عن الحركة إلى جانب ساعات الجدران الميتة.

* * *

في السنوات الماضية، لم تتردد الساعات المتنوعة في البيت لحظة في عد الثواني؛ كذلك هي كانت تحرص بأن تغير البطاريات قبل أن تنفد تمامًا؛ غير أن لقاءها بسيما خانم أَبْطَأ حركة الوقت في بيتها، ومذاك الحين لم تخرج لشراء بطارية جديدة ولم تصب دمًا جديدًا في عروق العقارب لمواصلة الدوران؛ فنفدت البطاريات تمامًا وظلت الساعات واقفة في آخر لحظة بلغتها.

قبل أسابيع رن جرس الباب رنينًا متواصلاً وسمعت صوت سيما خانم من خلف الباب:

– افتحي! بسرعة... افتحي!

هرعت نحو الباب حافية القدمين وفتحته بحركة سريعة ودلفت سيما خانم إلى الداخل متجهمة الوجه، ثم جلست على الأريكة ونادتها:

– أصغي إلي جيدًا! لا تتهكمي على ما أقول! البارحة، في الحلم، رأيت أفعى سوداء في جحر تحت أرض بيتك وعندما استلقيتِ على الأرض، أحستْ بحرارتك وانتفخت، وتضاعف حجمها، ومع علو أنفاسك انتفضت جوعًا وكادت تشق الأرض وتبتلعك، غير أن سيد جابر لوح بيديه من بعيد، وانسحبت الأفعى إلى جحرها... اذهبي! الآن اذهبي! لا... غدًا اذهبي! إلى مزار سيد جابر لينقذك من الشر القادم.

مرَّتْ أسابيع ولم يأخذها النوم إلى منازله الرحبة كما كان يفعل من قبل، سوى لحظات قصيرة قضتها بين النوم والكابوس فوق

الأريكة أو السرير، إنها لم تحب أن تصبح بلهاء كما كانت تصف سيما خانم وتصدق كابوسها وتلجأ إلى قبر سيد جابر، لكن الأرق قد نال منها وأي صوت تسمعه كانت تظنه فحيح الأفعى المترصدة لها، وأخيرًا استسلمت لإرهاقها وقررت أن تقصد مزار سيد جابر.

أخبرتها سيما خانم بتفاصيل الرحلة:

- في محطة الجنوب اركبي باص رقم ١١ وانزلي في المحطة الثالثة، وبعد المشي نحو الشرق في الطريق الترابي ستلوح لك معالم قرية، المزار يكون عند مدخل القرية، لا تخافي! أي ساعة تصلين ستجدينه مكتظًا بالزوار، إنه لا يدع زائره يعود خالي اليدين.

حزمت أمتعة رحلتها واستلقت على السرير خائفة تترصد الأصوات وتنتظر الصباح الباكر للرحيل...

* * *

وصلت المحطة الأخيرة والنائية وحيدة، كلما حدقت في المسير لم ترَ لافتة تشير للمحطة الثالثة، كل المحطات كانت متشابهة حتى انتهت في المحطة الأخيرة... صوت الريح بدا كأنه ذئب جائع ينتظرها، وتمنت لو تستطيع أن تعود، غير أنها لم ترَ حافلة ولا مسافرًا يبشِّر بقدوم حافلة، كانت هي المسافرة الوحيدة التي نزلت في المحطة الأخيرة، في البداية كان الكثير ينتظرون الحافلة ليبدأوا الرحلة معها، لكن لا أحد رافقها إلى النهاية، ربما اتجهوا إلى مزارات أخرى، لم تتذكر كيف وصلت المحطة؟ أين رحل السائق؟ هل كانت هي تقود؟ وماذا حلَّ بالحافلة بعدما نزلت؟.

بدا لها كأن كل الظلام نزل دفعة واحدة فور وصولها إلى المحطة، والبرد كان يصفعها بلا رحمة، وقفت حائرة وخائفة للحظات ثم فكرت أنها ليست في مكان أفضل من المجهول القادم فأدارت ظهرها إلى حيث كانت تهب رياح باردة وانطلقت في الظلام.

كلما سارت في الطريق، بدأ الظلام يتناقص، وشعرت كأنها تسير نحو القمر، وغدت تجرى سريعًا لتنتهي من البرد وتقترب

من الضوء، ثم أثارت انتباهها غرفة وحيدة في الطريق، فكرَّت أن تأخذ قسطًا من الراحة وتتدفأ في الغرفة المظلمة؛ ومن ثم تواصل الرحلة.

دخلت بخطوات وئيدة، ومشت في الظلام حتى ارتطمت بشيء ضخم وسقطت قربه، كلما شعرت بالبرد التفتت أكثر حول الجسم الدافئ، بعد هنيهة طوقتها يد طويلة لم تر منها سوى ساقها الذي التف على جسدها ووهبها الدفء والاتكاء.

صوت صفير من بعيد أزعجها وألصقت أذنها باليد الطويلة لتسد الطريق على إزعاجه، ثم ضوء خفيف أضاء الغرفة الوحيدة شيئًا فشيئا، وطفقت تبصر اليد الطويلة، كانت خطوطها سوداء وبيضاء ولها رأس صغير كان نائمًا بالقرب من رأسها؛ اليد كانت تشبه أفعى مرهَقة.

* * *

صوت الصفير المتقطع تحول إلى رنين متواصل ولم يتركها حتى نهضت من النوم وتبددت أمام ناظريها صورة الأفعى المرهقة،

كان لديها عشر اتصالات فائتة، وعلبة حبوب ديازيبام نصف فارغة، ثم انتبهت أن بطاريات الساعات منتهية، وفكرت بشراء دزينة من البطاريات عند عودتها من الدوام في المساء.

obeikan.com

المصعد العام

استهلَّ سليم يومه بتفاؤلٍ كبير، التهم إفطاره بسرعة، وألقى نظرة على أوراق شهاداته وسيرته الذاتية، ثم أغلق حقيبته المعدة منذ الليلة الماضية وغادر البيت مسرعًا... رغم أنه سهر يهيء نفسه للمقابلة ولم ينم إلا الهزيع الأخير من الليل، بدأ صباحه نشطًا واستقبله الأمل في الصباح فاردًا أجنحته الواسعة ليطير به إلى آفاق السعادة ورحابها دون أن يضايقه إرهاق أو نعاس.

كان ينتظر هذه الوظيفة منذ شهور كي يتخلَّص من وظائف الأجر اليومي ويتوظف في مكان يناسب مهاراته وتخصصه، سجَّل في عدة معاهد واحترف في المهارات اللازمة لهذه الوظيفة وأصبح على استعداد تام للمقابلة وثقة تامة بأن لا شيئًا يستطيع أن يقهره.

قرع جرس باب جاره، سعدون، ليخبره بحكم الجيرة والزمالة القديمة أن هناك مقابلة وظيفية، وهما كانا متخرجين من نفس

الفرع ولم يحصلا بعد على وظيفة تناسب تخصصهما ومؤهلاتهما العلمية، مع هذا سعدون لم يبحث على الوظيفة كما ثابر سليم، أبو سعدون كان يملك إحدى أكبر شركات استيراد حجر النرد في المدينة ولم يبخل على ابنه بأي شيء، مع هذا في الشهور الأخيرة سعدون مَلَّ البطالة والسهرات الشبابية وأخبر سليم أنه ينوي امتهان مِهنة تناسب تخصصه الجامعي.

طرق سليم على الباب عدة مرات ولم يسمع من سعدون سوى شخيره العالي، ظل واقفًا مستغربًا عند الباب يسأل نفسه: "بهذه البساطة يشخر؟"، اتصل على هاتفه المحمول وأجاب سعدون بعدما رنَّ الهاتف كم مرة بصوت ناعس:

– الدنيا ليل، سأحدثك في الصباح...

وأغلق الخط دون أن يسمع سؤال أو رد سليم.

حدَّق في ساعة هاتفه المحمول وأَدرك سليم أنه تأخر كثيرًا خلف باب سعدون المغلق، اتجه نحو الخارج بسرعة فائقة كاد أن يسقط على السلالم لكنه استعاد توازنه ونزل بسلام.

في الساعة السادسة صباحًا كل وسائل الطرق العامة كانت تعج بالمسافرين والعاملين والباحثين عن العمل، أفزعه الطابور الطويل أمام محطة الباص فترك المحطة واتجه نحو السلالم لينْزِل ويستقل المترو، مشى خطوات ثم توقف مترددًا يحدث نفسه: "ربما زحمة المسافرين هناك أكثر وأفقد الباص القادم"، فرجع بسرعة ووقف نهاية الطابور الذي اتسع مترين أثناء غيابه.

مكث لثوان ينظر إلى سيارات الأجرة ومن ثم مد أصابعه إلى جَيب بنطلونه وتحسس نقوده القليلة وتساءل: "هل آخذ تاكسي؟ أجرة التاكسي مئة أضعاف أجرة الباص!"، ثم حوّل نظره إلى الطريق السريع والسيارات المارقة أمامه، وبنظراته المتعطشة تابع عبورها الصاخب التي كانت تنطلق هناك بدون زحمة وبسرعة فائقة وظل يهمس في سره: "أي شرطي يستطيع أن يوقف سيارة بي إم دبليو ٢٠١٥؟ وهي من المؤكد متصلة بأحد كبار المدينة"، ألقى نظرة خائبة على سيرته الذاتية متسائلاً: "كم سنة من العمل ستنتقل بي من هذا الطابور إلى تلك السيارة الفخمة التي تبتعد عن أقدامي أمتار وعن جَيبي عالَمًا؟".

لم يعلم كم من الوقت استغرق في ذلك الباص المكتظ بالمسافرين، لكنه عندما نزل في محطته أحسَّ أن محل عمله القادم أقرب بكثير مما كان يتصور، وقف باعتزاز أمام العمارة الشاهقة وحاول إحصاء أدوارها لكن بلا جدوى، كأنها كانت تمتد حتى تعانق السحاب... توقفت نظرته عند شرفة خضراء تمنى في سره أن يطل بمكتبه على المدينة من هناك، أعاد النظر في أوراق سيرته الذاتية ووقف أمام مرآة الباب يتأكد من مَظْهَره، ثم دلف إلى البناية الفخمة، وهو يحافظ على رسم بسمة خفيفة على شفتيه، كي توحي بثقته بنفسه وبقدرته في التعامل مع الآخرين كما قرأ في كتاب "نصائح للمقابلات الوظيفية".

ألقى التحية على الحراس في مدخل العمارة ودون أن يسمع ردهم اتجه نحو المصعد، لكنه لم يكد يتقدم خطوات حتى أوقفه أحدهم وهو يصيح: أين؟، رجع بسرعة قدم التحية ثانية واعتذر عن دخوله ثم فتح ملفه أمامهم... تأمل بطاقته أحد الحراس وبعد هنيهة أعاد له الأوراق وأومأ إليه برأسه ليدخل.

غير أنه لم يمشِ خطوات حتى كست وجهه موجة جديدة من القلق، المصعد لم يصعد، وعاد إليهم يسأل الحارس بصوت خافت:

– عفوًا! اعتذر عن المقاطعة! لم يعمل المصعد؟ كيف أصل إلى الدور الخامس عشر؟

رَدَّ عليه أحد موظفي الحراسة دون أن يرفع رأسه المنحنى على شاشة هاتفه المحمول:

– المصعد العام مُخَصَّص للنُزول.

تأوه سليم بصوت منخفض وسأل الحارس للمرة الثانية:

– إذن كيف يمكنني الوصول إلى الدور الخامس عشر؟ عندي موعد مقابلة هناك بعد نصف ساعة.

– هل تملك بطاقة المرور الخضراء؟

– لدي بطاقة هويتي فحسب، إنها بيضاء!

– لم أعنِ هذا! اصعد السلالم! انتبه! الكهرباء معطلة هناك، امشِ بحذر.

صعد الدرجات الأولى بسرعة، ثم تعالت أنفاسه وقلبه بدأ يخفق بشدة، فأخذ يصعد السلالم ببطء حتى توقف في إحدى الأدوار ودلف إلى أقرب غرفة للاستدارة، ألقى التحية ولبث في الباب ينتظر الرد، لم ينظر إليه أحد، الغرفة كانت مكتظة بموظفي قسم الرواتب الذين كانوا منهمكين في أعمالهم، بخطوات مترددة ومتباطئة توجه إلى أقرب طاولة وسأل الفتاة البدينة الجالسة خلفها:

– عفوًا! في أي دَور أنا؟

– الخامس...

أجابت على سؤاله دون أن ترفع عينيها نحوه.

رجع بسرعة إلى السلالم واستأنف عَدْوه في الظلام حتى أوقفته أنفاسه في إحدى الأدوار، دخل الممر المقابل للدرج فأنعشته روائح الطعام وشعر بجوع شديد، لم يتقدم إلا خطوتين نحو المطعم حتى أوقفته لافتة "ممنوع الدخول لغير الموظفين"، تريَّث لثوان ثم رجع متعجلاً إلى السلالم المظلمة، أخذ خطواته ببطء حتى أوقفه التعب في دور هادِئ، فتح الباب الزجاجي ووجد

نفسه أمام صالة شاسعة، تتوسطها طاولة نرد، ثم لمح شخصين من الخلف كانا يقفان قريبًا من شرفة خضراء، وينفثان دخانهما إلى خارج العمارة، أدارت وجهها نحوه الفتاة وتقدمت خطوتين ثم خاطبته مبتسمة:

– كم يوم استغرق تسلقك للعمارة؟

نظر إلى نفسه المُترَب، والمتعَب خجلاً ثم قال:

– أريد أن أذهب إلى الدور الخامس عشر، عندي مقابلة عمل هناك.

اقتربت منه الفتاة وقالت:

– أنت الآن في الدور العشرين، عليك أن تنْزل خمسة أَدوار.

تشكَّر لها وأدار وجهه مسرعًا نحو السلالم، غير أن صوتها الناعم أوقفه:

– تعال! هناك مصعد في نهاية الصالة، اضغط على زر خمسة عشر وستصل في ثوان.

ثم لحقت برفيقها وتوجها إلى طاولة النرد...

وصل متعبًا وفرحًا إلى الدور الخامس عشر والعرق كان يتصبب من جبينه، وضع كل ما لديه من أوراق على طاولة السكرتيرة وقال:

– أتيت للمقابلة.

رمقته بنظرة متسائلة وقالت:

– وصلت متأخرًا... انتهى وقت المقابلات

ثم رفعت هاتفها وانشغلت في الحديث.

خرج سليم من العمارة طليق اليدين وإذا به يرى سعدون يوقف سيارته الفارهة أمامه، مشيرًا إليه بالصعود معه، نظر إليه باستغراب وبعد تردد فتح الباب وصعد إلى السيارة، غير أنه لم يلبث حتى شعر بضيق أنفاسه إذ عِطر سعدون كان يملأ الفضاء كاملاً ولم يبق حيز للهواء النقي... بحركة يديه طلب من سعدون إيقاف السيارة وقال الأخير:

– اصمد للحظات حتى ترجع إلى البيت...

غير أن سليم نزل من السيارة، وبحركة يديه تشكر لسعدون وانطلق يجري بقدميه، وقد أصبحتا قويتين على السير.

وجع الماء

عضَّتْ شفتها الجافة ثم أجالت بناظريها في الصالة العامة بحثًا عن ماء، غير أنها لم ترَ مبردًا، كان العطش في نمو والوقت في نقصان؛ فبللت شفتيها بآخر قطرات ريقها وأخذت تخطو بسرعة نحو مكتب الاستعلامات، حاولت أن تظهر واثقة من نفسها أمام السكرتيرة ورسمت ابتسامة خفيفة على شفتيها الجافتين وسألتها للمرة الثالثة:

– عفوًا! متى تصل رحلة رقم ٦١٣؟

هزَّت رأسها وأجابت السكرتيرة بامتعاض:

– في موعدها، الساعة الخامسة.

انصرفت إلى صالة الانتظار، أخذت لها مقعدًا وارتمت بجسمها عليه ثم نظرت في ساعة هاتفها المحمول، كانت الرابعة والنصف ظلت نظرتها متسمرة على شاشة الهاتف لثوان، وشعرت بحبات رمل تؤلم عينيها واستغربت الأمر، من أين يأتي الرمل؟ فكرت

ربما لكحلها علاقة بالرمل، فأغمضت وفتحت عينيها كم مرة حتى اجتمعت الحبات في زاوية عينيها ثم مسحت الرمل بمنديلها المبلل وفتحت عيونها على اتساعهما بلا وجع، بعدئذ وجهت نظرها إلى ساعة هاتفها ثانية لكن هذه المرة تراءت لها الأرقام متجمدة لا تتحرك، قربت الشاشة إلى عينيها وأحست بأن الرابعة تحولت إلى الخامسة فانتفضت مذعورة، أعادت تشغيل هاتفها وكذلك أغمضت عينيها وفتحتهما حتى تأكدت من الساعة الرابعة والنصف على شاشة هاتفها، ثم أخذت نفسًا عميقًا وأخذت تسترخي في مقعدها البارد، وتستمتع بتخّيل لحظاتها القادمة.

لم يطل تذوقها لحلاوة الانتظار وعاد العطش كحصان غير مروض يصهل في ثغرها، لقاؤه القريب قد أيقظ صحراء قاحلة تحت جلدها، كأن كل عطش السنين نهض يطالب بحصته من الماء المنتظَر، لكن المطار هو الآخر أصبح صحراء قاحلة، وكلما أدارت برأسها لم تعثر على ماء، ثم أخذت تهرب من عطشها بتصور اللحظات القادمة وهي تحتسي عصيرًا طازجًا في مقهى فخم برفقته.

رائحة عِطر فاحت من رجل مر من قربها متعجلاً، انتشلتها من تصوراتها الشهية، أدارت رأسها قليلاً للوراء لترى من هو صاحب هذا العطر المنعش لكنها لم تتمكن من رؤية وجهه، وانتهت نظرتها على فتاة جميلة استقبلت يديه المفتوحتين على مصرعيهما باستعلاء.

تركتهما يتعانقان وعدلت جلستها في المقعد ثم فكرت أنه يجب أن تقابله في أبهى طَلّة في أول لقاء لهما، أول لقاء يجمع جسديهما، قبل الجسد مراكب الشوق كانت تمخر الأثير وتسكر في الوعود، لكن المسافة قد تعبت من احتضان كل تلك المراكب النهمة وأصبحت على مقربة من الانتهاء بإرساء المراكب عند شاطئ اللقاء، أخرجت مرآة صغيرة من حقيبتها وبدأت تتفحص وجهها.

* * *

كانت العلاقة بينهما قد بدأت منذ ستة أشهر وتحولت من صداقة في العالم الافتراضي إلى حب عميق دون أن يتم لقاء

بينهما، التقيا كثيرًا في العالم الافتراضي بالصوت والصورة، دون أن يُطرِبَ عِطره هواءها أو تذوب أصابعها في أصابعه.

تعمّدت الانتظار وتأجيل اللقاء كي يتم امتزاج الروحين قبل الجسدين، وألقت كل الِحمل على هاتفها المحمول ليحمل أشواقها ويسافر بها في الفضاء، تسلك طريقها من بين كل الأمواج الأخرى وقطرات المطر وذرات الغبار، والدخان وأزيز الطائرات لتصل إليه، هو الذي لم يكن جسديًا حاضرًا في حياتها سوى حروف إلكترونية وصوت إلكتروني وصورة إلكترونية، لكنه توغل في أعماقها كما تتوغل قطرات المطر في الأرض الجافة، حتى أنها لم تستطع أن تتصور الحياة بدون ذلك الرجل الذي كان يعيش معها في شاشة هاتفها المحمول.

* * *

غيَّرت مكانها وأخذت مقعدًا في السطر الأخير في قاعة الانتظار، أرادت أن تتأمله بعناية قبل أن يلتقيا، وتتذوق لحظات اقترابه ثانية ثانية... أطبقت جفونها وأخذت تجول بخيالها بين كل الحالات التي من الممكن أن تحدث عمَّا قليل؛ تنتظره في

مقعدها باستعلاء ليغمرها بالقبلات، أو تتقدم نحوه خطوات معدودة ليتعانقا ويستأنفا حوار البارحة ببساطة، أو... فتحت عينيها ولاحقتها الصور إلى النور، بدا لها الموقف القادم أصعب بكثير مما كانت تظنه، لهفة الوصال كانت ترقص فرحًا في أقاصي عينيها غير أن خشية المجهول التي تخالج مشاعرها، كانت تهز أوتار قلبها، وجعلتها في وضع غير مستقر بين الفرحة والقلق.

الإعلان بوصول رحلة رقم ٦١٣، كاد يُخرِج قلبها من بين أضلعها خائفًا وعاشقًا لينهي ذلك الانتظار المميت، مدت يديها في الحقيبة وأخرجت هاتفها المحمول... لكنها تجمدت في مكانها فزعة وحدقت في الشاشة السوداء بعيونها المفتوحتين على اتساعهما:

– لا!... لا!... لا يمكن لهذا أن يحدث!

نفدت بطارية هاتفها المحمول، لتلغي جميع خياراتها لمواصلة علاقتهما وتضعها في بداية غامضة... وقفت صامتة لهنيهة ثم حاولت فتح هاتفها لكن بلا جدوى، كأنها استهلكت كل

خلاياه خلال الشهور السابقة وانسحب فجأة ليتركها تخوض أكبر مغامراتها العاطفية وحدها.

نهضت حائرة تردد لنفسها في حالة قنوط تام:

– يا ويلي! لا أستطيع أن أضيع الوقت في البحث عن شاحن والطائرة هبطت، أعرف أنه سوف ينْزعج كثيرًا إذا تأخرت عنه في أول لقاء.

تقدمت نحو البوابة تجول بعينيها بلا هدف بين القادمين، أحسَّتْ أن هاتفها ليس هو الوحيد الذي تخلى عنها بل ذاكرتها هي الأخرى أصبحت فارغة من الصور ولم تعد تتذكر صورته التي كانت تعيش معها في الشهور الماضية... استندت إلى الجدار وأغمضت عينيها لتهرب من هذا الواقع الصعب إلى عالمها الافتراضي الجميل، بعد لحظات عاد الأمل يدب في عروقها، تذكرت ما كتب لها في نهاية الليل الفائت: "انتظريني في قاعة الانتظار، سأعرفك دون أن تتصلي"، ابتسمت وقد أرغمتها الظروف على قبول مغامرته رغم إرادتها، مع هذا حاولت أن تخفض نسبة المجازفة وبعدما نهض المستقبلون لاستقبال

مسافريهم، خشت أن يضيعها في زحمة القبلات والمعانقات وتركت السطر الأخير وأخذت لها مقعدًا في السطر الأول، وانتظرت ضوء عينيه وهي تردد ما كتبت له البارحة: "أشعر بضوء عينيك يضيء ليالي الدامسة رغم المسافات والعوائق الطبيعية".

انتظرته حتى تفرق جميع القادمين من السفر... لم يبقَ أحد بعد، ووجدت نفسها وحيدة بين الكراسي الفارغة... عاد الوجع إلى عيونها وبمنديلها المبلل أخرجت بقايا الرمل، وبعدئذ تراءت لها الأشياء أكثر قربًا عمّا كانت تعتقد من قبل.

انصرفت عن بوابة دخول القادمين إلى الصالة العامة تجول بناظريها في وجوه الناس الذين لم تنتبه إلى وجودهم من ذي قبل، بعد هنيهة لمحت مبردًا في نهاية الصالة واتجهت نحوه، أثناء سيرها انتبهت أن هناك مبردات أخرى في الصالة فأخرجت كوبها من الحقيبة ومدته نحو أقرب صنبور.

obeikan.com

عُرس الإسمنت

تماوجت بفستانها الأبيض مع الأنغام الموسيقية الهادئة في شقتهما الصغيرة التي كانت تبدو أصغر مع تركيبة الألوان الجديدة التي طلت جدرانها خلال الأسبوع الماضي، مع هذا زنزانة زاهية كانت أفضل بكثير من قصر مظلم، لطالما هذا كان إحساسها الحقيقي الذي أخفته تحت وطأة فلسفة شريكها الغريبة.

* * *

لم تكن تشعر بحياة أي لون في شقته سوى سواد الغرفة الذي كان ينبهها باقتراب الليل، وبياض الساعة الجدارية التي كانت تراقبها طول مكوثها عنده.

بعد صبرها الطويل والهادئ على جدرانه المُرقَّعة بالأوراق؛ سمح لها أخيرًا أن تصبغ الجدران على ذوقها، فسبحت بالألوان لتخرج بتركيبة تكون على وقع سعادتها المقبلة، وفي الأسبوع الذي سبق حفل زواجهما أصبح بيتهما فستيوالا للألوان.

لم تبقَ نقطة سوداء في شقتهما إلا ودفنتها بأكوام الألوان الزاهية كما فعلت معها المصممة في صالون التجميل، دفعت مبلغًا باهظًا من المال لها لتغطي على كل البقع والهالات السوداء في بشرتها لتطل بأبهى صورة في ليلة عرسها على الرجل الذي كانت تحبه منذ سنوات، غير أن حبها لم يرَ ضوءًا سوى ضوء المصباحين الخافتين في شقته الإسمنتية الذي احتضن خوفها من أنوار الشارع.

التقت به قبل أربع سنوات، وفي السنتين الماضيتين لم ينهيا يومًا دون أن يقضيا معظمه معًا، في البداية أثارت استغرابها جدران شقته الإسمنتية التي كانت مغطاة بالأوراق، وأجساد كتبه القديمة، ظنَّت أنه لم يملك المال الكافي لطلاء الجدران، وحاولت أن تساعده في توفير المال، لكنها مع مرور الزمن أدركت أنه على ثقة تامة بأن تلوين الجدران والسقف بالأوراق لا يقل أهمية عن ما يفعله الطلاء بالجدران، وما ينقصه لم يكن سوى تركيز وإعداد لاصق أقوى وعدد أكثر من الأوراق، فضلاً عن هذا كان يعتقد أن تلوين الشقة بالأوراق يجعلها أكثر حيوية

وقابلة للتغيير في أي ساعة خلافًا للأصباغ التي ترغمه على الحياة وسط ألوان محددة، لفترة زمنية ربما تكون طويلة.

اعتادت على شقته الغريبة بعد سنتين دون أن تهتم بتفاسيره الأغرب... كانت ترتاد شقته ثلاثة أيام في الأسبوع، تخرج من بيتها في الساعة العاشرة صباحًا بحجة المكتبة، تقصد محل بيع القرطاسية تبتاع عددًا من أوراق الهدايا الملونة ثم تتابع سيرها، وفي غيابه تدخل الشقة وتبدأ بتغليف الجدران بالأوراق الجديدة بعناية فائقة وتحرص بأن تلتزم بكل تفصيلات تركيبة اللون الجديدة التي كانت تفكر بها طيلة الليلة السابقة.

بعد الانتهاء من الجدران، كانت تحوّل نظرها خائبة إلى السقف الإسمنتي، إن يدها لم تكن تطاله، كما لم يوجد سُلَّم في الشقة لتستعين به، كانت تنتظر شريكها كما وعدها بأن يصل إلى السقف بطريقة ما ويغلفانه معًا بالأوراق الملونة... بعدئذ كانت تنصرف إلى المطبخ لتعد الغداء بوصفة جديدة، ثم تقف أمام المرآة قُرابة ساعة لتختار الزي المناسب والمتناسق مع الأوراق الجديدة، وتمسك بالأقلام الملونة لتعدل ما ينقصها من خطوط

في وجهها؛ وتنتظره حتى يعود إلى بيتهما الزوجي الخاص في نهاية دوامه.

كان يأخذها هو الآخر في عناق طويل، ويمنحها اللهفة والقلق كبحر يغمر جزيرة وحيدة في أحضانه بأمواج القبلات وقلق الغرق في الأعماق، كان يتدرّجان سُلَّم المتعة والسعادة معًا حتى تطفأ نار أجسادهما في أعلى درجاته، ويعود هو إلى فلسفته الغريبة وهي تبقى عالقة في هيامها وقلقها، كانت تمكث معه ساعتين إلى ثلاث ثم ترجع إلى بيتها تترنح بين السعادة والقلق.

رفضت كل من تقدم إليها للزواج من أجله، وهي كانت تعد نفسها متزوجة منه لا ينقصهما سوى ورقة، ورقة مليئة بالسطور السوداء... في الشهور الأخيرة بدأت هذه الورقة تقلقها كثيرًا وسألته عن رأيه في الزواج رغم أنها كانت تعرف آراءه الغريبة في هذا الأمر، وكلما ناقشا أمر الزواج بصورة عامة كان يقول:

– لا أؤمن بهذه المؤسسة، ما يضمن استمرارية الحياة والالتزام بين الزوجين، هي إرادتهما للحياة المشتركة وحبهما لبعض وليست ورقة الزواج.

كان يضرب علاقته بها مثالاً لهذا الزواج الأبيض الذي كان يغمره الحب والالتزام، عكس حالة صديقه المتزوج شرعيًا وحياته لم تخلُ من نساء أخريات.

أخيرًا تجرأت وسألته بالتحديد عن زواجهما، هما الاثنين:

– إني تعبت من لعبة الغميضة، أريد أن أحبك وأعيش معك على مرأى من الناس وعائلتي، أريد أن أخرج بحبي إلى الشوارع والمدينة والبحر، تعبت الحياة كسمكة الأكواريوم... وأخيرًا أحب أن أنجب منك طفلاً.

قاطعتها دموعها وأشاحت بوجهها إلى النافذة المغلقة، أمسك بكتفيها وأدار وجهها نحوه، قبّلها على الوجنتين قائلاً:

– سيصير ما تريدين، لا أريد أن تتألمي بسببي! أنتِ ربي الأمور وسنتزوج، رغم أن هذه الأوراق لن تغيِّر شيئًا بيننا، وأنا أعدك زوجتي وحبيبتي منذ سنوات.

تم الزواج ببساطة، اكتفيا بدعوة عوائلهما وأصدقائهما المقربين، الذين لم يلبثوا أن بدأوا يمازحونهما:

– هل زواجكما أصبح أسود بعد ما كان أبيض؟

المزاح الذي أصبح مزعجًا له وبدأ يتحاشى أصدقائه في الحفل علَّ شخصًا آخر لا يسمعهم.

* * *

سمعته يودِّع الأهل والأصدقاء الذين رافقوهما من القاعة إلى شقتهما الزاهية بالألوان، وخفق قلبها فرحًا وخوفًا، تماوجت بفستانها الأبيض في شقتهما الصغيرة تنتظر لحاقه بها، طال الانتظار وراودها قلق عجيب وأصوات غريبة بدأت تعبث بسعادتها، أجالت بنظرها في الغرفة تبحث عن مصدر الأصوات فجمدها في مكانها المنظر المرعب... طبقات الصبغ على الجدران كانت تتشقّق وتتكوّم على الأرض، ولم يبقَ على الجدار لون إلا ونال منه الموت، وكشر عن أنيابه القذرة الإسمنت المخيف.

ارتعدت فرائصها وهربت نحو الباب، غير أنها تعثرت بفستانها الثقيل وسقطت على الأرض بين جثث الألوان، ظلت مقيدة بالفستان الثقيل لم تستطع النهوض ولم تعرف كيف تخلعه دون أن تسبب أضرارًا له وقد دفعت ثمنًا باهظًا لإيجاره لليلة

واحدة... لمحت زوجها يقلب بنظراته الورقة المليئة بالخطوط السوداء، ويتجه إلى غرفة النوم، تلك الغرفة المظلمة التي لم تعرف ماذا حل بألوانها.

obeikan.com

obeikan.com

جرح في الرسم

– إلى متى تبقين رفيقتي؟

جمدني في مكاني سؤاله المباغت، وانتابتني قشعريرة غريبة وشعرت كأن قلبي أُستل من صدري وألقى به عالقًا بين أضلعي، دنوت منه وسألته بصوت واهن:

– ما بكَ؟

– الوصول إلى هناك قد أصبح قاب قوسين أو أدنى، علينا أن نخرج بسرعة، ينتظرنا القارب بعد مغيب الشمس قريبًا من ضفة البحر؛ علينا أن نسبح قليلاً حتى نصل إليه.

– ليس هناك بحر... قد خدعتك القصيدة... إنه نهر يمر من وسط المدينة، لكن اللوحة كانت صغيرة ورمت بقية المدينة خارج الرسم.

– إنه بحر... قد خدعتك الخطوط... إني راحل.

– إلى أين؟

– إلى البلاد البعيدة...

– لماذا؟

– إني بلغت النهاية.

– وهل لوحة جديدة تنتظرك هناك؟

– إذا لم تكن، فلنتذوق طعمًا آخر من الموت.

– لم أنتهِ من الرسم!

– انتهت مني القصيدة.

ثبّتُ عيني في عينيه لثوان، كان القلق والأمل يتصارعان في أقاصي عينيه، لاحظت التجعدات الكثيرة تحت عينيه لأول مرة، وهالة سوداء كانت تحيط بعينيه المسبلة، سارت دمعة من عيني ورست بين أصابعي المتشابكة على طاولة الرسم، أشحت بنظري نحو النافذة، وهمست:

– وأنا؟

– أنتِ تجلسين في كل الكلمات...

– والمسافات؟

obeikan.com

– توجعني... هناك شرخ في اللوحة... هناك جرح في الرسم... كلما كتبت كلمة، تضرجت بالدم.

– سأرسمك فوق سحابة بعيدًا عن الأرض.

– الدخان افترش السماء... إني أختنق.

– سأرسم لك نافذة كبيرة.

– وماذا تفعلين بهذا الغبار ... سيعمي القصيدة.

– سأرسمك خارج الإطار.

– سترهقين النوارس العطشى في القصيدة...

– إنك عشت يومًا صعبًا... اصبر... ستتعود على الأمر...

– إني راحل، أسدلي الستار على اللوحة! لا أحب صور الوداع.

أحسست بموجة برد جمّدت الدم في شراييني، حرّكتُ أصابع يدي لأتأكد من سلامتها، أسدلت الستار على اللوحة ثم مشيتُ بضع خطوات لكني شعرت بأن قواي تخور ولا تقدر قدماي على حمل جسدي البارد، فاستلقيت على السرير، أغمدت

رأسي في البطانية وحتى ساعات متأخرة من الليل ظللت أبكي بصوت مخنوق.

طنين ذبابة تحلق فوق سريري أرغمني على النهوض، وقفت أمام المرآة أتفقد ملامح وجهي، جفت البحيرتان اللّتان كانتا تطوقان عيني منذ أيام وخلفتا غيمة يتيمة تبحث عمن يتبناها في نظرتي، مسحت بأصابعي على شفتي المرآة وانتبهت أن أصابعي زرقاء وباردة، أخفيتهما في جيب معطفي، ثم عضضت على شفتي وانتبهت أن شقوق شفتي امتلأت بغبار المرآة، ابتعدت عن صورتي خطوتين فشعرت بوجع يؤلم قلبي كأن أرضًا جافة كانت تتفطّر هناك.

مع حلول الغروب اقتربت من طاولة الرسم بخطوات وئيدة ووقفت أمامها أتصور عودته، بعدئذ سحبت الغطاء عن اللوحة؛ الألوان في غيابه تحولت إلى جزائر متنافرة، لطخات حمراء كانت مبعثرة هنا وهناك دون أن تعرف دورها في الرسم، اللون الأصفر كان يشرق في زاوية بعيدة عن إطار الرسم، واللون الأخضر كان يجلس في زاوية منعزلة عن الرسم، الأسود

كان المسيطر على الحدود ويمتد بنهم نحو قلب اللوحة، ولم تبقَ مسافة بيضاء إلا ويتوسطها شرخ في اللوحة.

تذكرتُ آخر حواري معه:

– لِمَ نهرب؟

– نحن لا نهرب بل نهاجر لنرى جرحنا من بعيد!

– هناك سنموت.

– ربما نولد من جديد.

– لا أريد أن أترك رسمي ناقصًا...

– قد التهمت يدي القصيدة، لم تسد جوعها مدنك المحاصرة بالخطوط.

– سأرسم لك يدًا جديدة.

– أريد أجنحة.

* * *

أحسستُ بضيق في صدري فخرجت من البيت، وابتعدت بعلبة ألواني ولوحتي عن صخب المدينة، وأخذت أمشي في

الشارع الخلفي الذي لم أتجول فيه من قبل، ولفح وجهي هواء جاف كان يستجدي الدمع من المشاة القليلين، مشيت لساعة في الشارع المهجور في نهاية الحي، حتى انتهت العمارات وتبدد الدخان الذي كان يلفها وظهرت البيوت الريفية مشرعة الأبواب، ولون السماء بدأ يتغير من الرمادي إلى الأزرق كما اختفت رائحة الدخان واشتدت رائحة الشط والجواميس.

طويت الشارع بلا هدف، حتى انتهيت في قرية كانت في الماضي متصلة بالمدينة، أو بالأحرى القرية هي من أنجبت المدينة لكن في ما بعد تركت بيتها المتواضع تلك البنت العاقة لوالدتها ورافقت الغرباء وغرقت في الدخان والأضواء والضوضاء.

كانت القرية ترتبط بالمدينة في بعض نقاط وتنفصل عنها في عدة نقاط أخرى، لم آتِ إلى هنا من قبل وبدا لي نهر كارون يصهل في قلب القرية كالحصان، لم أرَ أثرًا من ذلك الجفاف الذي مزقه وسط المدينة.

مشيتُ في اتجاه مجرى النهر وانتقيت خطواتي برقة كي تتناسب مع وقع الماء الذي شعرت به يتدفق في جوفي، حين يتسع مجرى

النهر ويصبح كأنه يفضي إلى عالم أرحب، التقط أنفاسي وتهدأ خطواتي والماء يلامس قدمي برفق لكن عندما يضيق المجرى بالنهر، يصهل الماء كحصان غير مروض ويجرى بسرعة نحو مصبه، وأنا الآخر انطلق بسرعة لأصل فضاء رحب يشرح ضيق صدري.

واصلت الخطو في تناغم مع عزف الماء حتى وصلنا إلى الغابة في زمنها الجميل الذي لم تكن تعرف قيمة الفحم، كانت الأشجار الباسقة تعانق النهر من كل صوب، وأزيز العصافير وحفيف الشجر وتأرجح الأوراق على يد الريح وخوار الجواميس التي جرت تسبح في النهر؛ كانت كلها على وقع خطاي التي سارت تلعب في الشاطئ.

ثبّتُ اللوحة على جذع شجرة في ضفة النهر حيث غاصت قدماي في الرمل وأمسكت بفرشاتي وأخذت أمزج الألوان على اللوحة، لم يلبث حتى طفق قلبي يتلمظ القطرات ومضت فرشاتي تسبح في الصور.

جرت أصابعي بتلهف خلف حركة الفرشاة المتناسقة مع وقع الماء، والجزائر المتنافرة ظلت تلوح لبعض، الأسود انقشع عن السماء كأننا كنا في بداية الصباح، والأصفر بدأ يضيء النهر بشمس كبيرة، والنقاط الحمراء امتزجت ببعض وكوَّنت قاربًا يشق طريقه في الرسم في وسط الأزرق المتلألئ، والأخضر احتضن الرسم من الصوبين، وألوان كثيرة ومتنوعة طفقت تلعب في امتداد أشعة الشمس على الشاطئ.

بعدئذ ارتفعت أصوات النوارس على الضفة وهي تتمتم بشيء غامض لم أستطع رسمه كأنها تبحث عن قصيدة تجلس في طياتها، تبحث عن بياض تكتب أغانيها في صدره، ثم سمعتُ صوت باخرة وهمهمة مسافرين، استغربت الأمر؟ أين أنا؟... تسلقت شجرة باسقة وأدركت أني في نهاية النهر، على مقربة من البحر، هبطت الشجرة ووضعت قدمي في النهر، واجتمعت الأسماك حولها وهي تنقر أصابعي وتتمتم بشيء غامض.

بعد هنيهة الأمواج غطت قدمي، ورفعت بصري نحو البحر ورأيته يسبح بقوة خلافًا لجهة الماء، عيناه كانتا تلمعان وجسمه

كان ناصع البياض كأن كل بياض الألواح والقصائد اجتمع فيه، كان مرآة نقية تعكس الألوان الأخرى، رأيت أزرق النهر يصعد إلى عينيه ومن ثم ينحدر إلى مجراه وكذلك الأسماك الملونة كانت تقفز بعيدًا في جسمه ومن ثم ترجع إلى النهر، والعصافير كانت تتزلق على الأصفر من أعاليه في معصم الشمس ثم تشرب الماء من يديه، وقف مبتسمًا قبالتي في الماء وقال:

– تسبحين؟

ابتسمتُ له ورميت بنفسي إلى جانبه نسبح إلى البحر...

obeikan.com

obeikan.com

ذاكـرة العطـر

بعد أن هزمه النعاس طوى الجريدة ووضعها في الرف المخصص لها، أطفأ التلفاز ووضع جهاز التحكم على الطاولة، ثم سار إلى غرفة النوم بخطوات متثاقلة كعادته في الساعة التاسعة من كل مساء، أغلق الباب خلفه وأسدل الستائر تمامًا حتى سدت الطرق على كل الأشعة الضوئية، ثم كبس على زر مفتاح الكهرباء وأطفأ المصابيح.

الظلمة أعمت عيونه وشعر بارتياح، خلع قميصه وسرواله وعلقهما على المشجب، واكتفى بسرواله الداخلي ورمى بجسده الثقيل فوق السرير، أخذ يتمرغ في السرير حتى وجد المضجع المريح، فخلع سِرواله الداخلي وجعل جسده يرقد في العتمة عاريًا، كأنه عاد إلى نقطة قبل الصفر في حياته، عندما كان يمرح عاريًا في عتمة رحم أمه التي لم يرَ وجهها وماتت فور ولادته القيصرية.

دخلت زوجته الغرفة بعد الانتهاء من الأعمال المنْزلية، أشعلت المصابيح لتأخذ أزياءها غير آبهة بنومه وهي تعرف أنه دخل سباته العميق ولن يُوقظ وإن ضربه زلزال كبير، وحده زلزاله الداخلي العظيم سوف يسترجعه مِن فاه النوم بعد منتصف الليل.

دخلت الحمام وتركت الماء الدافئ يفتح كل مسامات جلدها لتتنفس لحظاتها القادمة عميقًا، جفّفت شعرها المجعد دون أن تمشطه واكتفت برش كمية قليلة من زيت اللوز على خصلات شعرها الملتوية التي سوف تمرح بين أصابعه، لبست ثوبًا شفافًا أحمر كانت تلمع معالم جسدها الأسمر من خلفه، ورشت من عطره المفضل على عنقها ثم أطفأت المصابيح وسحبت الستائر ليرافقها ضوء الشارع الخفيف إلى السرير... دارت كالفراشة فوق جسده المُضاء، بعدئذ جلست بهدوء على حافة السرير ونظرت إلى الساعة الجدارية وابتسمت:

– عمَّا قليل سيعود.

بعد هنيهة تسارعت أنفاسه والعرق بدأ يتصبب من جبينه، ثم أخذ يلتف حول نفسه، وضمَّ رجليه إلى بطنه، ظلَّ على هذه الحالة لثوانٍ معدودة ثم فتح يديه على اتساعهما وطفق يضرب الهواء بقدميه كأنه يحطِّم جدارًا ما، بعدئذٍ تأوه بصوت خفيف واستدار في السرير حتى أسند رأسه إلى ركبتها، ابتسمت ورفعت رأسه إلى صدرها وهمست في أذنه: "خذ نفسًا عميقًا!... خذ نفسًا عميقًا!"، طوقها بذراعيه المفتولتين وشهق بصوت عال وأفاق من النوم.

– شكرًا لأنك مازلتِ هنا.

لفظها بصوت دافئ وانهال عليها بالقبلات، غمرتها السعادة وهو يضمها بقوة حتى أحست بالاختناق وعدلت من مكان رأسها عدة مرات إلى أن وجدت منفذًا والتقطت أنفاسها، ثم عادت برأسها ودفنته في صدره وقالت في سرها: "هذه المرة، لن استسلم! لن أترك فجوة واحدة بيننا يكمن فيها النوم، ذلك الكائن الغريب الذي سوف يهرب بروحه الجميلة إلى غابات مخيفة، ويترك لي ذلك الرجل العنيف الذي لا يتعرف علي طوال النهار".

سألها سؤاله المكرر:

– كم ساعة مضت على نومي؟

وتابع قبل أن يسمع ردَّها:

– كأني أَتَيت من مُدنٍ بعيدة، طريقها الوعرة قد أرهقت جسدي.

كانت ترد عليه كل ليلة بشرح مختلف عله يبقى مستيقظًا لفترة أطول، ولا يعود لكابوسه في نهاية الليل... أحست بهدوء وهو يعدها:

– إذ كان هذا حلمًا لن أستيقظ منه؛ وإذ كان واقعًا لن أرحل منه إلى الحلم.

رفعت نظرها إلى الساعة، قد تأخر عليه النوم خمس دقائق! وعادت فرحة تسرد له قصة مدهشة؛ غير أن الارتباك طفق يسيطر عليها عندما احمرت عيناه بعد هنيهة، سألته مرتبكة:

– تنام؟... لا... لا

ردّ واثقًا:

– لا! لا! لن أنام، إنها مجرد حساسية وستزول.

أسبل عينيه ولم تسمع منه صوتًا بعد، شبك ذراعيه فوق صدره وتقرفص على السرير، ورغم محاولاتها، علا شخيره بعد دقائق، ألقت عليه ملاءته البيضاء وامتلأت عيونها بالدموع.

في اليوم التالي نهضت مبكرًا وأسدلت الستائر وأغلقت كل منافذ الضوء والصوت، عله يبقى نائمًا لفترة أطول، غير أن كل محاولاتها باءت بالفشل أمام أشعة الشمس، واستيقظ بعدها بدقائق، دلفت إلى الحمام لتتجنبه فور استيقاظه.

أمسك بجهاز التحكم وأشعل التلفاز واختار قناته الإخبارية المفضلة واستمع للأخبار واقفًا لهنيهة ثم جلس متوترًا على الأريكة، وأخذ يتصفح جريدته القديمة، بعدئذ نهض يجول ببصره في البيت كعادته في هذه الساعة من كل يوم، كان ينتظرها ليبدأ نهاره، خرجت من الحمام ودخلت الغرفة في خلسة منه ووضعت من عطره المفضل في الليل، تمنت أن تحدث معجزة ويتذكر رائحتها الليلية، وسارت بخطى مرتعشة إلى الصالة.

نهض متجهم الوجه ورفع فنجانًا فارغًا من على الطاولة وسار نحوها، رمى الفنجان على البلاط وتطايرت شظاياه بينهما، اقترب إليها مشهرًا يده المرتعشة في وجهها:

– لِمَ لم تعدي لي الشاي؟

حاولت الهروب، لكنه انقض عليها كأسد جائع، وطرحها على الأرض، جثم فوقها وأمسكها من كتفها وهزها بقوة، أريج عطرها عبث بتضاريس وجهه وأصبح صفحة حمراء تبتعد وتقترب من وجهها مع ضربات يده المتواصلة وهو يصرخ:

– هذا عِطر حبيبتي، ما فعلتِ بها؟

اختلطت دموع الحب والخوف في عيونها وأقسمت له أن حبيبته ستعود قريبًا، ثم نظرت إلى الساعة الجدارية برجاء: ليتها تركض العقارب ويحل الليل.

الناقد

روايتي غير المكتملة لم تفارقني لحظة في السنين الماضية، أين ما اتجهتُ كانت تسبقني بلافتاتها التوعوية، تارة كنتُ أحذو حذوها لأعانق حلمي المنتظر في نهايتها، وتارة كنت أهرب منها لأسبح في كف خطيئة صغيرة، كانت تقتفي أثرى وتمسك بي وتبقيني في دائرة نصها، كنتُ أفرِّق أوراقها بين أوراق ثبوت الهوية، وقائمة الاحتياجات المنْزلية والأدعية والقصائد الغزلية والكتب العلمية في حقيبة كبيرة، وأتجه بها نحو مكتبي في كل صباح، وعادة ما كنت أسمع همس أوراقها في الحقيبة وهي تحاول إقناع كل الأوراق الأخرى بالذوبان في نصها.

قبل الناقد لم يخترق روايتي أحد، كنت أحيا وقتي الميت في الدوام بتشذيبها من الأخطاء النحوية، أو أعيد بناءها الفني، لكني لم أقترب من أبطالها، أو بالأحرى من بطلها الذي كان يغيِّر اسمه ومظهره في كل فصل منها... لم يكن حاضرًا خلال

مراجعتي الصباحية، كأنه كان يرقد في أعماق النص بسبات عميق ليسمح لي أن أقلّب خطاه الماضية بكلماتي كيفما أشاء، خلافًا لجلستي المسائية معها، حين كان يتجلى لي بكامل هيبته، تارة كان يقف مهمومًا في شرفتي الصغيرة ينظر إلى الأفق البعيد ويدخن سيجارته المعتادة، وتارة كان يتمدد على السرير ويردد قصيدة غير مفهومة ويحاول تفادي النظر مباشرة إلي، لئلا أرى ترقرق الدموع في عينيه. أحيانًا كنت أتلصص النظر من جسده المفتول بالعضلات وهو يترنم بصوت هادئ تحت الدش، بعد ذلك كان يرحل فجأة بلا سابق إنذار، كأنه يغيب في الزمن وتعود شقتي إلى برودتها المعتادة وحروفي إلى عبثية ترتيبها.

عندما خرق الناقد روايتي، تعددت فيها وجوه الحياة وطفق يتناحر الأبطال، كانت عيناه الثاقبتان تشقّقان صرحي الورقي في صباح كل أربعاء حيث كنت ألتقي به في مكتب الجريدة لأقدم له مقالي الأسبوعي، حينها كانت تختلط لدي المتعة بشعور الذنب، وأظل أتساءل في نفسي: "ماذا يقودني نحو هذا الناقد؟" لم ألاحظ يومًا إنه قرأ المقال أو أضاف تعليقًا عليه،

كان يحوله إلى السكرتيرة للطبعة النهائية ثم ينصرف إلى روايتي، نظرته الثاقبة كانت تمزق الحقيبة وتفترس سطور الرواية، لم يقرأ روايتي قط ولا يعرف ما كنت أحمله في حقيبتي، لكن ليس كل قراءة تمر من خلال اللغة، القراءات الممعنة تعري النص ولو نستره بأبهى زخرفة.

بعد كل أربعاء روايتي لم تعد كما كانت، وكل فرضياتي المهيأة للفصول القادمة كانت تنْزلق إلى الفجوة التي يتركها الناقد في النص.

– سيدة حياة هل هناك أمر آخر؟

صوته الشفاف كسر سُلَّمي البلوري نحو صرحي المشيد في البعيد وعدتُ انظر إليه بإعجاب، عضضت شفتي السفلى لأغطي على الثورة المشتعلة تحت أحمر الشفاه، وتحسست بذور كثيرة كانت تنتظر الإفصاح مني لتبرعم، لكني أغلقت فمي لأسد منافذ النور على كل الرغبات الأخرى التي كنت أخشاها في حياتي.

كنت أهواه بشدة في لحظات، رغبة قوية في مساحة زمنية صغيرة كانت تنسف كل شيء آخر يقف في مسيرها، حتى بطل روايتي كان ينسحب إلى الوراء لترتشف المتعة كأسها دون أن يوجعها ألم الماضي أو يشغلها قلق المستقبل.

أصبحتُ العربة الصامتة التي يجريني حصان الوقت بين الدوام والبيت، وأنا أحمل روايتي دون أن أستطيع التقرب منها، في الصباح دب الناقد الحياة، حياة جديدة في كلماتي الميتة ولم يعد التحكم بها سهلاً، وطفقت تثور على بنائها الفني السابق ولم تعد تتبع خطى وسام في الليل.

وفي الليل عندما كنت أغلق باب البيت من الداخل، وسام يفيق ويرجع إلى النص بكامل سلطته وتدب الحياة في سطور روايتي من جديد وتطرب أذني لكلماته الثقيلة، وقصائده الغامضة التي لم أفهم منها سوى مفردات مشتتة، وينتفض فيّ الشعور بالذنب، وأظل اسأل نفسي باستمرار: "هل طفقت أتبع خطى الناقد في روايتي رغم وجود وسام؟".

مع هذا روايتي كانت ممزقة بمبضع الناقد، وحيثما كنت أدس رأسي في أوراقها، أشم عطر الناقد في فجواتها الموزعة على أيام الأربعاء... أحيانًا كنت أتمنى لو أستطيع أن أمزج وسام بالناقد، وأصنع رجلاً مثل وسام يملأني في غيابه، ومثل الناقد يطربني في حضوره.

التقيت بوسام قبل خمسة أعوام في جامعة طهران، كنت طالبة السنة الأولى ولم أنصهر في أنوار المدينة الكبيرة بعد، مذاك الأحد الميمون عثرت على وطني المفقود في تلك الأرض البعيدة والغريبة، وسام أتى كشعاع ضوء ينير دربي في دهاليز الغربة والوحدة، كنت جالسة في مقهى الكلية في زاوية بعيدة عن الآخرين أتصفح الجرائد القديمة وأمامي على الطاولة الصغيرة كوب بلاستيكي لم أرغب بارتشاف شايه الأصفر، وسمعت صوته الأليف ينادي اسمي بالعربية، ابتسمتُ وقلبي أخذ بالخفقان، تقدم نحوي كأنه كان يعرفني منذ زمن، وقف بعيدًا عني بأمتار وقال:

– سلام عليكم... أختي من الأهواز؟

وقفتُ لحظة مدهوشة وقلت بسرعة:

– أي... نعم

أخرج ورقة من حقيبته وقلمًا من جيب قميصه، كتب شيئًا وردَّ لي الورقة وهو يقول:

– هذا رقم هاتفي إن رغبتِ بأي شيء لا تتردي في الاتصال.

بعدها كنت كل رغبة للاتصال به، لكني كلما فكرت بحجة مقنعة لم أعثر عليها، وتركت الأمر للغد كي يأتيني بحجة نبيلة.

مذاك الحين بدأت بكتابة روايتي، لم أعنِ كتابة رواية كنت أكتب اليوميات المهمة والمؤثرة في، لكن بعد أعوام أدركت أني عصرت الأعوام في كأس الغد ولم يأتِ الغد لأشرب بصحته، إني خيَّطت كل نقاط عطف حياتي بخيط الانتظار لتكون رواية فاخرة تليق بالغد.

بعد الناقد، بدأت روايتي تنشق إلى روايات غير مكتملة عديدة، كل أزمنتي نهضت في صحوة استثنائية، ومواقف ومشاعر منسية عادت إلى الواجهة في نضرة شبابها، الناقد لم يكن في حسباني حين رسمت خطة الرواية لكنه ظهر فجأة في مقبرة

كلماتي ليكشف عن ثغرة كبيرة في رحلتي عن اللحظة التي لم أعشها وقيدتها بطوق الرواية الكبرى... أين ما التقيت بالناقد ترك فجوات عميقة بين الفصول كانت تنتظر زلة مني لتقضي على روايتي، وهو كان يتربع على حافة الفجوات ولم يعر اهتمامًا بالبداية ولا النهاية، ظللت هناك عالقة لا أدرى كيف أبني الجسور بين الفصول المتمردة على سير الرواية.

وسام كان ينتظرني في نهاية الرواية وبيده صورة لي لا تشبهني كثيرًا، كانت تشبه فتاة في بداية العشرينات، تشد شعرها المجعد بقوة إلى الخلف وتهتف في مقدمة صفوف الطلاب الثوريين بملء فمها: "الموت للخونة من غدروا بالغد وضاجعوا اللحظة"، وترفع لافتة كبيرة: "الآن ليس إلا خلاصة الغد والأمس... اعرفْ أمسك واصنعْ غدك لتربح الحاضر...".

منذ أن خرق الناقد روايتي شعرت أن وسام يجرني بسرعة إلى النهاية ليدخلني في الصورة، طبعًا هو لم يعلم بوجود الناقد لكنه ظل وفيًا للصورة وأدرك أني لم أعد أشد شعري إلى الخلف بل كثيرًا ما كنت أتركه يلعب في الهواء أو يسدل على كتفي وعيوني.

في لقائنا الأخير؛ أهداني الناقد بمناسبة عيد ميلادي، ساعة رقمية جميلة شاشتها لم تظهر سوى الأرقام المشيرة إلى اللحظة الآنية بألوان وأضواء مختلفة، وسرعان ما ألقيت ساعتي القديمة التي كانت ترعبني بدائرتها الكبيرة وعقاربها الطويلة في سلة المهملات، مع هذا ظللت أسمع أنين اللحظات اليتيمة التي لم تتعود على الحياة خارج الدائرة.

عشت أيامًا ضبابية في فوضى عارمة ومن شدة الشكوك والتفكير أصبت بحمى شديدة ولزمت الفراش لمدة أيام، في إحدى الليالي شعرت بأن الكلمات تتساقط من أصابعي واحدة تلو الأخرى وتتكوم على الأوراق ومع سقوط أي كلمة كنت أفتقد جزءًا من ثقلي، وابتعد عن السرير متجهة إلى الأعلى.

انتبهت أن الكلمات كانت تتشابه وتبدو كأنها كلمة واحدة بصور مختلفة، وعندما أمعنت النظر فيها كانت كلها تشبه كلمة الغد، ثم فجأة كشرت عن أسنانها المتهالكة إحدى كلمات الغد وكادت تبتلعني، فانهالت من أصابعي كومة أخرى

من الكلمات وملأت فمها، وبعدها أصبحتُ خفيفة كريشة وحلقت نحو الأعلى حتى سد طريقي سقف البيت.

اتكأت على السقف ورأيت أجساد الكلمات تملأ الغرفة وباتت تتكوم على نفسها وخشيت أن تنال مني، طفقت أبحث في السقف عن منفذ حتى رأيت فراشة تحلق قريبًا مني فتبعتها، وخرجت بي إلى فضاء رحب، فراشات كثيرة كانت تحلق فيه ولم أعد أميز فراشتي بينهن، وانتبهت أن تلك الريشة الخفيفة أصبحت هي فراشة...

* * *

نهضتُ من النوم مبكرًا على صوت ضرب مطرقة جاري في الجدار، كنت بصحة جيدة وتناولت كوبًا من الحليب الدافئ ثم أمسكت بمحاتي وجلست خلف طاولتي.

مع انتهاء إجازتي في نهاية الأسبوع؛ انتهيت من مجموعتي القصصية وقدمتها إلى دار النشر.

obeikan.com

انتهت

obeikan.com

obeikan.com

المؤلفة في سطور

- مريم كعبي
- قاصة وشاعرة إيرانية
- من مواليد الأهواز ، في عام ١٩٧٩م
- حاصلة على شهادة الماجيستر في هندسة الاتصالات من جامعة "مدرس" طهران.
- نشرت مجموعة كبيرة من القصص القصيرة والشعر في المواقع والمجلات العربية.
- صدر لها : الرحلة إلى الطنطل ، مجموعة قصصية.
  شمس للنشر والإعلام ، القاهرة ٢٠١٨

- البريد الإلكتروني : maryamchaebi@gmail.com

obeikan.com

obeikan.com

Tel :(+2) 01288890065

www.shams - group.net